أيامي

الجزء الأول: في سيئون وبورد و







أ.د. مسعود عمشوش

أستاذ الأدب العام والمقارن – جامعة عدن

٢٠٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 2022

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب – حضرموت 327 سنة 2022

العنوان: أيامي – الجزء الأول: في سيئون وبوردو

المؤلف: أ. د. مسعود سعيد عمشوش

المقاس: 14 × 21 سم

عدد الصفحات: 165

يمنع طباعة أو تصـــوير هذه المطبـــوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف

مركز مهارات للتدريب والدراسات والترجمة والنشر

mahaaratcentre@gmail.com

عدن

المحتويات

الإهداء	5
المقدمة	7
1- أيامي في مدرسة القرن أ	9
2- برفقة أبي في مسقط رأسه	15
3- أيامي في مدرسة القرن ب	19
4- في أزقة القرن	23
5- أيامي في المدرسة الوسطى	27
6- أيامي في الثانوية	33
7- أيامي في مدرسة النهضة	41
8- التحضير للسفر إلى فرنسا	47
9- في مطار الغرف	53
10- ثلاثة أيام في عدن وجيبوتي	59
11- يوم في باريس	67

12- يومي الأول في بورد و 77
13- المستوى الأول فرنسي أ 85
14- استكشاف بورد و 91
15- المستوى الأول فرنسي ب 97
16- رحلات الكروس 103
17- صيف 1976
109
18- برفقة صديقي فيريو 115
19- سنة (دوعنية) 121
20- البدء في دراسات الـ(Deug) 125
21- سنة أولى (DEUG) 131
22- صيف 1978 في إيطاليا 135
23- أعياد نهاية العام 1978 في باريس 141
24- سنة الليسانس 145
25- سنة المتريز 149
26- ملحق الصور 153

الإهداء

إلى من جمعتني بهم تلك الأيام

المقدمة

ظليت، سنوات طويلة، مثل كثير من الناس، أعتقد أن الماضي قد دفن ولن يعود أبدا. ومع ذلك ظلت هناك نتف منه تطفو على سطح الذاكرة من حين لآخر، فتشبثت بها، وقررت تدوينها، وحفظها في الورق. وعندئذ فوجئت أن تدوين تلك النتف بات أداة لاستعادة كم كبير من ذكريات الماضي، الذي كنت أعتقد أنه قد امتسح نهائيا من ذاكرتي بفعل تقلبات الزمن وهموم الحياة. وبدا لي أنه ربما يكون من الصعب عدم تذكر اسم أو أحداث وقعت لي الأسبوع الماضي أو حتى أمس، لكن يبدو أن ذكريات الماضي البعيد ظلت في الحقيقة محفورة في ذهني، وما عليّ إلا أن أحاول النبش فيه لاسترجاعها.

هكذا، كنت في البدء أعتقد أنني لن أستطيع كتابة تفاصيل كثيرة من أيام طفولتي ودراستي في المدارس الابتدائية والوسطة والثانوية، ثم أيام دراساتي الجامعية

والعليا في فرنسا. لكن تبين لي أن الكتابة لم تكن صعبة، بل أنها كانت محفزا جيدا للذاكرة.

ولم أر أن في الصفحات التي كتبت فيها تلك الذكريات ما يمنع مشاركتها مع القارئ؛ لذلك يسرني اليوم أن أنشر الجزء الأول منها، المكرس لسنوات دراستي في مسقط رأسي سيئون، وبوردو في فرنسا. وآمل ألا يبرز في صفحات أيامي في كلية التربية العليا جامعة عدن، التي عُيّنتُ معيدا بها في سبتمبر 1981، وأيامي التي قضيتها لتحضير الدكتوراه في السوربون، ما يمكن أن يمنع نشرها قريبا، إن شاء الله.

والله الموفق.

مسعود عمشوش

(1)

أيامي في مدرسة القرن أ

بعد أن فقدت المرحومة سعدية بن مزروع، التي يُعَد والدي ابن عمتها، زوجها، وسافر ابنها الأكبر عوض إلى بلاد السواحل في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، اختارت أن تعيش، بجوارنا، في حي القرن بسيؤن، مسقط رأسي. وكانت تزورنا بين الحين والآخر برفقة ابنها ربيع وبنتها زهراء. وفي مساء أحد أيام شهر أكتوبر من عام 1962 حضر الثلاثة لزيارتنا والمبيت عندنا. وفي الصباح هيأت سعدية ولدها ربيع، الذي كان يكبرني بعام واحد، للذهاب للدراسة في مدرسة القرن الأهلية، التي كانت قد تأسست قبل أكثر من عام، بجهود أهالي الحي، وعلى رأسهم أستاذي الأول الشهيد محمود سالم صقران، الذي عُيّن أول مدير للمدرسة.

وعلى الرغم من أن أبي كان يحلم أن يكون له ولد يتقن القراءة مثلما كان والده يتقنها، فهو لم يبادر إلى إلحاق

أخي سالم الذي كان في السابعة من العمر ويكبرني بعامين، بهذه المدرسة، إذ أنه لا يستطيع الاستغناء عن سالم في الصباح لأنه كان يساعده في أعمال الزراعة، واكتفى بتركه يتردد على (علمة بلغيث) في وقت الظهيرة. لكن عندما طلبت منه أن يسمح لي بالذهاب للمدرسة مع ربيع لم يرفض، فقد كنت صغيرا جدا، ولم أتجاوز بعد الخامسة، وغير مفيد في المزرعة. لذا قال لربيع، "اصبر، أنا با شلكم للعلمة".

وتوفيراً للوقت قادنا أبي عبر ثلاثة بساتين (حيوط) من القرن، كثيرة الخضرة قليلة البيوت، إلى أن وصلنا دار علي السقاف (البكاي)، الذي يقع على بعد نصف كيلومتر من مزرعة (نفيسة). في هذه الدار كانت مدرسة القرن قد اختارت -لبضعة أشهر- غرفة مربعة لتعليم نحو ثلاثين تلميذا ينتمون للمستوى الأول والروضة. وعند باب الغرفة وقف أبي ونادى المعلم عمر باكثير (عمر معلم)، أخبره برغبته في إلحاقي بالمدرسة، لعلي أصبح قاضيا مثل مسعود بارجاء الذي أعطاني اسمه، وشرح له عمر معلم أن عليه أن يدفع شلنين

في الشهر، وأن يشتري لي (نظير وفطلط)، أي كراسة وقلم رصاص.

***

وعند نهاية العام الدراسي الأول انتقلنا للدراسة في بيت المرحوم سالم بارمادة الواقع وسط القرن. لكن في مطلع العام الدراسي التالي (1964/1963) انتقلت المدرسة بكل صفوفها إلى مبناها الجديد الواقع في سفح الجبل، شرقي حصن الشلس. وقد تم تشييده بواسطة مبادرات أبناء الحي ودعم مالي سخي قدمه المرحوم الحاج سالم عبيد باحبيشي، الذي استقر في القرن بعد زواجه من إحدى بنات جيراننا آل جواس. ولرفد ميزانية المدرسة افتتحت اللجنة المشرفة عليها (مشروع مياه القرن)، واشترت شاحنة (قلاب زيزو)، قام يسار الجبهة القومية بتأميمها في نهاية عام 1968.

وفي مطلع ذلك العام الدراسي (1964/1963) اقتنع والدي بإلحاق أخي سالم بالمدرسة، وقد تمّ قبوله في المستوى الثاني مباشرة، إذ أنه استفاد كثيرا من (علمة بلغيث)، وقد ظلّ طوال وجوده في مدرسة القرن يتنافس هو وسالم فرج بافرج على المرتبة الأولى في جميع الامتحانات

والمستويات. وللأمانة كان الأثنان أهدأ طالبين في الصف، بينما كنت أنا وعبادي (عبد الله) السبايا وزيد فرقز - رحمة الله عليهما- من أكثر التلاميذ تمرداً، وكنا دائما نتأخر عن الحصة الثالثة بما أن وقت الاستراحة لا يكفينا للتنقيب عن كميات كافية من البطاطا في البساتين المجاورة. وكانت ملابسنا متسخة باستمرار، ولا نسمح أبدا لأحد منا أن يلبس شميزا ناصع البياض أو كامل الأزرار.

لا أتذكر شيئا مهما في سنتي الثانية بمدرسة القرن غير حصص الجغرافيا التي تعلمنا فيها رسم خرائط للبيوت وواجهاتها، والبحث عن الكنز في الجبل المطل على المدرسة. وأتذكر أيضا الطابور الصباحي والحفل الأسبوعي الذي ينظم كل يوم خميس بعد الحصة الثالثة. ومن أبرز أساتذتي الأجلاء في تلك السنة أتذكر عبد الكريم عبّود، شقيق مصطفى عبود الذي أستقبلني في باريس سنة 1975، ومحمد عبد الرحمن السقاف (ميم السقاف)، الذي كان يحتفظ بعدد لا بأس به من العصي.. لمن عصا.

وعندما انتقلت، في العام الدراسي التالي، إلى المستوى الثالث، جرت حوادث مهمة كثيرة، فبعد فترة قصيرة من بدء العام الدراسي، تقلص فجأة عدد التلاميذ في الصف؛ فبعد أن كنا نحو سبعة وثلاثين تلميذا وجدنا أنفسنا ذات يوم أقل من عشرين؛ والسبب هو أن عددا كبيرا من السكان الذكور في حي القرن اختاروا الهجرة برا إلى المملكة العربية السعودية، وقد سهل هذه الموجة الجماعية للكبار والصغار وصول عدد كبير من سيارات النقل (الونيت) السعودية إلى سيؤن. وكنا نشاهدها تجيء وتروح طوال العام 1964، وقد اتخذت من ساحة (جروب الحسن) محطة لها. وبالنسبة لأبي، لم يرض أن يسافر أحد من أبنائه الخمسة إلى الحجاز .وقد سبق لأبناء أخواله، آل بن مزروع، أن حاولوا قبل نحو عشر سنوات إقناعه بالسماح لابنه الأكبر أن يسافر معهم إلى ممباسا، لكنه، بعد أن وافق واستخرج له جوازا تراجع ورفض سفره. وخير ما فعل؛ فقد تزامنت موجة الهجرة الجماعية إلى السعودية مع العودة الإجبارية لآلاف المهاجرين الحضارم من شرق إفريقيا واندونيسيا (جاوة).

وقد استقر في حي القرن عدد من العائلات العائدة من المهجر الشرقي في جاوة، ومن السواحل الشرقية لإفريقيا. لهذا، بعد أن حرمتني الهجرة من عدد من أصدقاء الطفولة، مثل صالح ناصر سلمي وعامر مجرش وسعيد وأحمد البكيري وراضي ومطران باسعيدة، صار لدي أصدقاء (سواحليين)، مثل أحمد خميس عبدون وأخيه جمعان وصالح سلمان باصالح وأخوانه علي وعوض وربيع. وكلهم من مواليد سواحل افريقيا. وفي ذلك العام عاد أيضا من السواحل صالح بن مزروع، شقيق سعدية بن مزروع وولدها عوض. وقد التحق صالح بالعمل في البنك لأنه كان يتقن اللغة الإنجليزية، أما عوض فقد التحق بمدرسة القرن. وانتقل ابن عمي، علي عبود عمشوش، مباشرة من دار السلام في كينيا إلى جدة بالمملكة العربية السعودية.

(2)
برفقة أبي في مسقط رأسه

منذ أن كنت في الخامسة من العمر، في مطلع ستينيات القرن الماضي، كان أبي، الله يرحمه، يحرص على اصطحابي معه، أنا من بين جميع أولاده الخمسة، إلى مسقط رأسه قاربة كل ليلة 25 رمضان، لنحضر ختم مسجد وادي بن سلمان هناك. وكان يذكر سعيد بن قفله، صاحب سيارة لاند روفر قديمة خضراء، ليحجز لنا مكانا في سيارته، وينقلنا بعد العصر إلى (الوادي)، الذي يقع على بعد 15 كلم شرقي سيئون. وعادة كان أخي سالم يسبقنا في الوصول إلى هناك.

وكنا، للإفطار والعشاء، ننزل ضيوفا على المرحومين: سالم وعوض بن مزروع ابني خال أبي. وكان الثاني منهما قد فتح أول دكان في الوادي، منذ أن عاد نهائيا من المهجر. وكنا نتسحر عند صالح بن مزروع في حراد الذي عاد هو أيضا من المهجر وأصبح موظفا في البنك. وأكثر من حرصنا على تناول السحور كنا نحرص عندهم على سماع الفاتحة الطويلة التي يتحفنا بها المرحوم عميران بن مزروع. وبعد الفاتحة كان علينا، في السنوات التي

يتزامن فيها رمضان مع فصل الشتاء، المرور وسط الوادي لأداء صلاة الفجر في المسجد. وأتذكر البرد القارس جدا الذي كان علينا تحمله في قاع الوادي.

وفي صباح اليوم الثاني اعتاد أبي أن يأخذني معه إلى منطقة (آل غرَيب) التي تقع على الطريق بين سيؤن وتريم. وهناك يفرجني على النخيل و(الخريب) التي تخص آل عمشوش، والتي لا تزال إحداها قائمة حتى يومنا هذا، وهي ملاصقة لبيوت آل محسن بن كرثيم العامري، وبإحدى مزارع آل العامري. وأتذكر أنني في إحدى المرات أجهشت بالبكاء حينما جلس أبي فترة طويلة في إحدى غرف تلك الخرابة، وقال لي إنه ولد فيها، وإن أمه المزروعية قد اضطرت لمغادرة وادي بن سلمان للعيش في "هذا الدار"، الذي لم يعد في الواقع داراً. وبما أن أبي كان حينها يشارف على الستين، كان العوامر يسألونه، "يا سعيد، الزقر ذا لي معك، عاده ولدك؟"، يرد عليه باعتزاز: "نعم ذا آخر العنقود".

وفي بعض السنين كنت أرافق أولاد الأقارب من الوادي، من آل بن مزروع وآل بن سعد، وبعض القادمين من سيئون، لاسيما ربيع وهادي أبناء حمود بن سلمان، للذهاب في جولات طويلة في الشعاب القريبة، وكنا نغامر أحيانا ونصل إلى منبع وادي (الحزير) الذي كان بعيدا حقا،

ويشرف على منبع وادي جذع المطل على سيئون، وكان معظمنا يضطر أن (يكعم) من مياه الوادي، رغم أننا نؤكد جميعا عند عودتنا أننا صيام. وفي بعض الأحيان كنا نعرج على (شحرة الغبراء)، التي أصبحت الآن محاطة بمركز سكني استقر فيه كثير من سكان وادي بن سلمان، وكنت أصر على المرور عند (عِلب الشيخة سلطانة بنت علي)، وسط المسيال، لنقرأ على روحها الفاتحة.

وعندما يصادف الخامس والعشرين من رمضان يوم جمعة كان أبي يقرر البقاء في الوادي إلى العصر لنصلي الجمعة ونؤدي بعدها مباشرة الخمسة الفروض في مسجد الوادي؛ فأهل الوادي اعتادوا أن يؤدوا الصلوات الخمس دفعة واحدة كل آخر جمعة من رمضان، ويؤكدون أن ذلك يمكن أن يشفع لهم عن أي تقصير يمكن أن يحدث في أداء الفروض خلال العام المنصرم .والله أعلم.

(3)

أيامي في مدرسة القرن ب

وفي مطلع ذلك العام 1965/1964، طلب مني المرحوم مرعي مرسال، الذي كان مشرفا على فندق السلام، التابع للبيت، أن أبيع له الآيسكريم (ابو العود أو المصنه) الذي كان يحضره في ثلاجات الفندق. ولمدة شهر كنت آخذ منه علبة الآيسكريم وأذهب بها بعد عصر كل يوم إلى المنازل المجاورة لـ(نفيسة)، وفي الحقيقة كنت أبيع كل محتوى العلبة لعائلة آل الزبيدي التي عادت من أندونيسيا. وكانوا كلهم (مولدين) لا يتقنون العربية، وقد طلبت مني الفتيات أن أحضر لهن السجاير بدلا من الآيسكريم. وعلمني الأولاد سياقة الدراجة الهوائية مقابل منحهم الآيسكريم مجانا. وبعد أن زاد عدد الآيسكريمات التي كنت أقول إنها (ذابت) سارع المرحوم مرعي مرسال بطردي من المهنة!

وفي بداية ذلك العام الدراسي طُلِبَ منا أن نشتري نسخا من القرآن لقراءته في المدرسة وفي الحزب، في مسجد محمد بن عمر أو مسجد عمر حيمد، بعد مغرب كل يوم. وبعد أن وشى بي بعض أصدقائي عند المدير وأخبروه أنني لم أختن بعد ولا يجوز لي أن أقتني القرآن، أرسل المدير إلى أبي من يخبره أن عليه أن يختن ابنه. لهذا في ظهر اليوم التالي، مسك أبي بيدي وأخذني إلى غربي سور بئر السعادة، وهناك كان بانتظارنا جارنا علي بافطيم وابنه سعيد والختان الذي قام بالمهمة لي ولسعيد، في أقل من ثلاث دقائق. لم تكن عملية الختان مزعجة في حد ذاتها، لكن المشكلة أنه كان عليّ أن أسمح لعدد كبير من المتطفلين والمتطفلات مشاهدة ختاني. وقد نجحت في نهاية الأسبوع الأول من هذه العملية الكبرى أن أجمع نحو عشرين شلنا؛ اشتريت منها كرة بلاستيكية ونسخة من القرآن الكريم كلفني تجليدها ثلاثة شلنات ونصف.

وفي المستوى الرابع (1965-1966)، قام محمود سالم صقران بتدريسنا بعض أجزاء من مادة اللغة العربية، لاسيما مادة الخط، وكان يلزمنا بنسخ كتاب المطالعة في المنزل، ويتابع قراءتنا للقرآن دون مصحف أثناء

(الحزب) في مسجد عمر حيمد. وقد تحسّن خطي بشكل سريع بما أنني كنت أمارس الكتابة بشكل يومي، إذ أن كثيرا من نساء الحي فضلن الاستعانة بي -لجهلي وصغر سني على ما يبدو- للكتابة إلى أزواجهن في المهجر. وفي الحقيقة لم يكن يترددن في إجباري على كتابة أشياء مخجلة حقا، إلى درجة أن والدتي -رحمة الله عليها- فضلت عدم الجلوس معنا عندما تأتي إحدى الجارات لأكتب لها (خط) إلى السعودية.

وفي مطلع عام 1966، ألف الأستاذ محمود سالم صقران مسرحية شعرية بعنوان (ثورة شعب)، واختارني لتمثيل دور الطالب فيها. وبوصفه مديرا للمدرسة استطاع أن يستقطب للتدريس فيها وفي صفوف محو الأمية في حي القرن، اثنين من أبرز المناضلين: عوض باعباد والفنان القدير علوي سالم مولى الدويلة الذي كلف أيضا بالإشراف على المجلات الحائطية.

وفي الاحتفال بعيد جلوس السلطان حسين بن علي الكثيري في ذلك العام شاركت مدرستنا في عدد من المسابقات الثقافية والرياضية التي نظمت في ساحة مسجد الجامع أمام قصر السلطان، وقد تم اختياري في

فريق لعبة كرة العميان التي فزنا فيها على فريق (المدرسة الحكومية).

(4)

في أزقة القرن

كان القرن من الأحياء الأكثر خضرة في سيئون، وكان معظم السكان المستقرين من العمال والمزارعين. ومن بين المستقرين بشكل دائم فيه كذلك: آل بن حسين السقاف، الذين كانوا وما زالوا يتميزون حقا بالتواضع وحب العمل. وهو ما أكسبهم حب جميع سكان الحي.

وفي الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي لم يكن بحي القرن إلا بضعة دكاكين تبيع السلع الأساسية لا سيما المواد الغذائية؛ أهمها دكان بن عبيد، الذي على الرغم من ضيقه الشديد أصبح (ملتقى) للكبار من أبناء الحي الذين يأتون إليه بعد صلاة العشاء -وفي رمضان بعد صلاة التراويح- للأكل وتدخين المداعة (الرشبة)، - إذ أن التدخين كان ممنوعا في البيوت- ولعب (البطة) واللهو. وفي دكان بن عبيد كانت صناديق الحنضل والشاي السيلاني (أبو ولد) وجحلة (أو زير) اللخم القريني تتجاور دون أن يؤثر أحدها في الأخرى. وكان

هناك دكان عقيل ودكان البكيري ودكان منصور، ودكان سقاف بن حسين الذي يتميز عن الدكاكين الأخرى بشيء من الاتساع والترتيب وكانت أمامه ساحة واسعة نستخدمها نحن الأطفال للعب كرة القدم أو اللعب بالبطاقات التي تحمل صور أشهر الممثلين والفنانين المصريين الذين كنت أشاهدهم أيضا على شاشة سينما سيؤن منذ منتصف الستينيات، وخلف الدكان كان هناك حوش تستخدمه النساء لإقامة بعض المناسبات في العصر أو المساء ولاسيما للترازيح في رمضان.

وكان الناس الذين يتعاملون بالدين يفضلون الشراء من دكان سقاف لأنه كان دقيقا في مسك الدفاتر، وربما لهذا السبب تم اختياره متعهدا لتموين سجن حصن الحوارث بالمواد الغذائية. وكنا نحن أيضا نشتري من عنده. وقبل أن يستعين بصهره عوض الدقيل في تسيير أمور الدكان، كان في بعض الأحيان حينما أمر للدكان، يطلب مني البقاء في الدكان ريثما يقوم هو بقضاء بعض الحاجات، وربما للذهاب بدراجته النارية إلى حصن الحوارث.

ومن الخدمات الجليلة التي كان يقدمها دكان سقاف أنه أصبح مكتب بريد القرن؛ فبعد أن هاجر كثير من السكان إلى العربية السعودية قام بريد سيؤن بتحديد

الصندوق رقم 4010 لحي القرن. وكان سقاف بن حسين يعرج على الصندوق شبه يوميا لإحضار رسائل سكان القرن الذين يترددون على الدكان لأخذها. وكان لزاما عليّ أن أدون ذلك الرقم على ظروف الرسائل التي يطلبن مني بعض النسوة كتابتها لأزواجهن في السعودية. وفيما بعد استفدت كثيرا من ص ب 4010 لاستلام بعض الرسائل من برنامج (ندوة المستمعين)، الذي كان يبث من (هنا لندن)، ثم لاستلام سيل المجلات الصينية والعراقية والكويتية التي لا أدري كيف أصبحت مشتركا فيها. وعندما سافرت إلى فرنسا في منتصف السبعينيات كنت أبعث برسائلي لأهلي عبر ص ب 4010.

وفي السبعينيات طلب من سقاف بن حسين، أطال الله عمره، أن يصبح خطيبا لمسجد محمد بن عمر (جامع القرن)، وفي تلك الفترة تزوج من ابنة هادي الدقيل، أحد عمال القرن، وقد أنجبت له عددا من الأبناء والبنات، وأصبح ابنه المرحوم عبد الرحمن خطيبا لمسجد القرن وبعد وفاته خلفه أخوه علوي بن سقاف، أما عمر بن سقاف فهو خطيب مسجد طه وسط سيؤن.

وكان لسقاف بن حسين أخ اسمه محمد، وكان رحمه الله متواضعا ودمثا وطيب الأخلاق، ولفترة من الزمن فتح طاحونة في حوش البيت، وكان يقدم لزبائنه، بالإضافة

إلى طحن الحبوب، أنواعا عدة من القصائد والحكايات المسلية.

(5)

أيامي في المدرسة الوسطى

في نهاية العام الدراسي (1966/1965) كان على تلاميذ المستوى الرابع ابتدائي في مدارس سيؤن الأربع أن يجلسوا للامتحان في مبنى هذه (المدرسة الحكومية)، التي تقع حاليا وسط سوق سيؤن، خلف مبنى إدارة الاتصالات وإدارة البلدية. وفي مطلع العام الدراسي التالي (1967/1966) تم الإعلان عن أسماء التلاميذ العشرة الذين قبلوا -من مدرسة القرن- لمواصلة الدراسة في المستوى الأول في المدرسة الوسطى بسيؤن. وكان اسمي واحدا منهم.

ومع انتقالي إلى المستوى الأول من المدرسة الوسطى (ما يعادل الصف الخامس)، توقفت عن التوجه شرقا باتجاه أزقة حي القرن، وتوجهت غربا؛ فالمدرسة الوسطى تقع في (بئر بن داعر) وسط سيؤن، في المبنى الذي شيده أبوبكر الكاف في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وباعه في مطلع الستينيات لإدارة المعارف. وفي الحقيقة

كان المبنى قديما ومتهالكا وبعض أجنحته منهارة ومغلقة. لكنه يعد تحفة أثرية واسعة، وبه ساحات كبيرة وحديقة ومسبح ومسرح وملاعب لكرة الطائرة وكرة السلة والتنس الأرضي. والأهم أنه كان يتوسط مدينة سيؤن الطويلة.

وقد أدى ذلك إلى تغيير كبير في البيئة التي كنت أعيش فيها خلال السنوات الأربع السابقة؛ فبعد أن كان حي القرن هو المحيط الذي يسمح لي بالتنقل فيه أصبحت أتنقل في جميع أرجاء سيؤن بذريعة الذهاب إلى المدرسة؛ صباحا للدراسة، وعصرا للمشاركة في الجمعيات العلمية، ومساءً للمذاكرة. وساعدني ذلك في التعرف على زملاء ليس من أحياء سيؤن الأخرى فقط، لكن أيضا من مختلف البلدات المحيطة؛ فالمدرسة كان بها داخلية يسكنها طلبة من مختلف مدن وادي حضرموت: تاربة وبور وشبام وساه وحورة والريدة والجول. ونتيجة لذلك، وبعكس أخي سالم الذي ظل ملتصقا بعدد كبير من الأصدقاء من أبناء القرن وفي مقدمتهم صالح مطبق وفرج مبارك سالمين، تقلص احتكاكي بزملاء طفولتي الأولى في أزقة القرن.

وبما أن مدرسة سيئون الوسطى كانت حينها المدرسة الوحيدة التي تمنح تعليما متوسطا متكاملا على مستوى الوادي فقد كانت مكتظة بالطلبة، الذين كانوا في الغالب يوزعون إلى شعب عدة. وكان في المدرسة مدرسان سودانيان، أحدهما يدعى عبد الحميد ميرغني الذي كان يدرسنا اللغة الإنجليزية أحدث مناهج (معهد بخت الرضا). ومن أبرز المدرسين الذين أتذكرهم اليوم الأستاذ سالم باحميد الذي كان يدرس اللغة العربية والأستاذ عبد القادر الروش الذي درسنا الدين، والأستاذ عقيل السقاف، الذي درسني التربية الفنية وأصبح زميل سفري إلى فرنسا عام 1975. ولفترة وجيزة انتدب مدرسان سعوديان للتدريس بالمدرسة. ومن بين المديرين الذين تناوبوا على المدرسة أتذكر الأستاذ عبد المجيد بن هرهرة.

في الغالب كان زملائي في صفوف المدرسة الوسطى أكبر مني سناً، وعمالقة: منهم عوض باصحيح وعلي الكاف وفائز بازهير وسعيد الجابري ورمضان باجبير وعبد الحافظ باحشوان وعباس مالك بن قبيلة وسعيد القرزي وعلي الروشن وأحمد ومحمد علي الحبشي، وغالب بافطيم الذي بدأ مشواره الإعلامي بالتقديم وقراءة قصائد نزار قباني

في حفلات مدرسة سيؤن الوسطى. وإذا كان زملائي وأصدقائي يقبلونني زميلا لهم في الصف وفي جلساتهم في اتحاد الطلبة أو السينما ومكتبة الشهيد فهم يرفضون تماما أن أشاركهم لعبة الطائرة، لأن أي فريق أكون معه ينهزم حتما بسبب صغري.

ومن أبرز معالم المدرسة الوسطى، إضافة إلى تمثال الأسد البرونزي والمسرح والمسبح الذي يحرص عمنا عوض الصالي على ملئه كل خميس لنغتسل مع ثيابنا وسطه، مقهى بوشيخ (السيد)، الذي كان يبيع لنا -تحت الشجرة- الشاي الملبن والكيك. وكان (الأخوان الشكالة) يبيعان الآيسكريم (المصه ابو عود) بشكل منتظم. لهذا كنت بحاجة إلى النقود. وللحصول عليها كان علي أن أقوم ببعض الأعمال البسيطة في المزرعة، وتحديدا (تفخيط) النخيل، وهي مهمة مثمرة ومغرية؛ فقد كنت أكسب منها بعض أنصاف الدراهم اللازمة لشراء الشاي والكيك المصه وكذلك تذاكر السينما. فقد كانت سينما سيؤن تقع بجوار المدرسة. وكنا نقنع المسئول عن التحضير في المذاكرة المسائية بتسجيل أسمائنا زورا. وكنت أواظب على حضور أفلام رعاة البقر (الكاوبوي)

والأفلام الهندية، بعكس بعض الأصدقاء الذين لا يشاهدون إلا أفلام فريد الأطرش وفريد شوقي.

لقد تزامن انتقالي إلى المدرسة الوسطى مع بداية مرحلة الغليان الثوري والنضال ضد الاستعمار البريطاني على مستوى حضرموت والجنوب بشكل عام. فقبيل الاستقلال شهدت سيئون عددا كبيرا من الأحداث السياسية، كان منتسبو نادي الشباب بسيئون ونادي الوحدة بالقرن والمدرسة الثانوية والمدرسة الوسطى من أكثر المشاركين فيها. بالنسبة لنا في المدرسة الوسطى كانت مشاركتنا تنحصر في الإضرابات والمسيرات والبيانات التي عادة ما نجدها ملصقة في بوابة المدرسة. وإذا كنت أحب الإضرابات التي كنت أعتبرها مجرد إجازة، والمسيرات، فقد كنت أجهل تماما كواليس تلك الأحداث السياسية الصاخبة. وقد شاركت في المسيرة الطلابية التي نظمها - في 10 سبتمبر 1966 - اتحاد الطلبة، ونجم عنها ما عُرف (بأحداث الرابطة) ضد المقترحات الدستورية، واستشهد على إثرها زميلي في الصف (الأول متوسط): محمد عبد القادر جواس، وبترت كذلك يد بركه هبيص. وشاركت أيضا في المسيرة

التي توجهت إلى السكرتيرة البريطانية وتم خلالها اقتلاع كل أعمدة التلفون التي تربط السكرتارية بمعسكر حصن الحوارث. وعند دخول الجبهة القومية إلى سيؤن في مطلع أكتوبر 1967- تم تجنيد بعض أبناء القرن في جيش التحرير: منهم سعيد بن وليد والحوطي (بوسمير).

وبعد الاستقلال، وتحديدا عام 1968، عشت الأحداث العنيفة التي شهدتها سيؤن في إطار الصراع بين يمين الجبهة القومية ويسارها. وقد تم خلالها اعتقال عدد من أبناء القرن المناصرين لأستاذي الشهيد المناضل محمود سالم صقران المحسوب على (اليميني) قحطان الشعبي. وقد كان أخي الربيع ضمن المعتقلين.

(6)

أيامي في الثانوية

في بداية العام الدراسي 1972/1971 انتقلت من المرحلة الوسطى، التي أصبحت المرحلة الإعدادية، إلى المرحلة الثانوية. ويعكس المدرسة الوسطى (بن داعر) التي تقع وسط حي الثورة، بين البساتين والمنازل، والتي يحيط بها سور متهالك، تقع المدرسة الثانوية خلف الكهرباء (القديمة) ودار باحبيشي، قرب جبل سيئون الشرقي، وكانت مبانيها لا تزال في طور التشييد، وليس بقربها أي بيت، وكان العم أحمد بن زيلع (لويو) يبذل جهودا طيبة في سبيل تشجير المدرسة، لاسيما حول المطبخ ومساكن المدرسين. وكان الطلبة يعتبرون الثانوية بعيدة جدا، أما بالنسبة لي - كنت أسكن في الطرف الغربي من القرن خلف مسجد عمر حيمد - فكانت قريبة، بل أنها أقرب من الوسطى. وكان بإمكاني الذهاب للبيت خلال الاستراحة .

في السنة الأولى انتابني شعور بأنني قزم بين عدد كبير من العمالقة، إذ أن معظم الطلبة في الثانوية كانوا فعلا كبارا مقارنة بسني، أنا الذي دخلت مدرسة القرن في الخامسة، قبل أخي سالم الذي دخل الثانوية في العام نفسه. وإضافة إلى زملائي الذين انتقلوا معي من الوسطى مثل هود بارجاء وعوض باصحيح ورمضان باجبير وحسين بن جديد وحاج باوزير وخميس عوض ويحيى المشهور وعبد الحافظ باحشوان، كان هناك عمالقة أخرون كثيرون في الصفوف العليا، وهم ليس من سيؤن فقط بل من مختلف مدن وقرى السلطنة الكثيرية: من ساه وتاريه وتريم والحوطة، بل ومن تريم التي كان بها وسطى لكن لم يكن بها ثانوية، بل وحتى من شبام التي كانت تتبع للسلطنة القعيطية، وكان المرحوم عبد المطلب جبر حينها في المستوى الثالث وصالح مطبق في الثاني، وكلهم (شيابة)، ولا يستطيعون أن يخفوا ابتسامتهم عندما ينظرون لي بسني وحجمي الصغيرين. وكان بعضهم يشكل جزءا مهما في الفرق الأساسية لنادي الأحقاف: مثل حسين بن جديد أو صالح عبد الله، وبعضهم في نادي الأهلي: مثل عوض باصحيح ورمضان باجبير وسعيد باجيدة والحارس عوض بن عبادة.

كانت المدرسة واسعة وتضم مباني لسكن الطلبة القادمين من خارج سيؤن، وقد تعرفت على بعضهم، مثل سعيد الجابري وحاج باوزير من ساه، وحسين العيدروس ومبارك سعد من تاريه، وسهل بن سهل وجنيد محمد الجنيد من تريم، وأحمد خميس من قاهر. وتضم المدرسة كذلك مساكن للمدرسين ومطبخ (يسلم بشير)، ومختبرا واسعا قمنا فيه بتشريح الطيور والضفادع، ومكتبة واسعة، الكتب الإنجليزية فيها أكثر من العربية. وفي إحدى تلك السنوات استمعنا فيها للشاعر عبد الله البردوني.

وتزامنت سنوات دراستي في الثانوية مع سنوات الخضم الثوري الذي شهدته جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وكذلك الثورة المضادة في تلك الفترة 1971-1974. بالنسبة لنا في المدرسة انعكس ذلك في ظهور القسَم الذي علينا ترديده في الطابور الصباحي الذي لفترة تم نقله إلى الساحة التي تقع أمام الكهرباء القديمة، والتي كنا نستخدمها للعب كرة القدم في العصر، والتي اعتبرت نقطة وسط بين موقع الثانوية وموقع مدارس القرن (أو مدارس العمال بنين وبنات)،

وكذلك في تغيير لون القميص (الشميز) من الأبيض إلى الكاكي. وفي كثير من الأحيان كان على الطلبة أن يشاركوا في المسيرات التضامنية، وليست الاحتجاجية طبعا، أو حضور إعدام عميل من الثورة المضادة قام بزرع الألغام، وهناك أيضا المبادرات الجماهيرية، وحصة التربية الرياضية التي حولها المرحوم حسن بلفاس إلى تربية شبه عسكرية. أما الرياضة فكنا نمارسها حقا في فصل الشتاء عندما نتسلق الجبل الشرقي ونصل إلى منتصفه عند علامة بنية اكتشفنا أنها بقعة ملحية تتوسط ذلك الجبل.

وطبعا في المستوى الأول كنا ندرس معا، وكانت هناك شعب عدة. وفي نهاية المستوى الأول كانت درجاتي ممتازة، حتى في الرياضيات التي قمت بتدريسها بعد تخرجي في مدرسة النهضة. وبما أن الإدارة اعتادت أن تضع أصحاب الدرجات العليا في القسم العلمي وأصحاب الدرجات المتدنية في القسم الأدبي، فقد نزل اسمي مع أخي سالم في القسم العلمي. لكنني رفضت وطلبت من الأستاذ عبد اللاه محمد هاشم، الذي عين مديرا للمدرسة في مكان ابوبكر عباد، أن يحولني إلى القسم الأدبي. وفي البداية

رفض بشدة، ولم يوافق إلا بعد أن قضيت أسبوعا أبكي عند باب مكتبه. وطبعا لم تواجهني أي صعوبة في القسم الأدبي وكنت أتنافس أنا ويحيى المشهور على المرتبة الأولى.

وكان المدرسون في الثانوية في تلك الفترة سوريين وفلسطينيين ومصريين بالإضافة إلى عدد من الحضارم؛ أذكر منهم عمر محسن الكثيري الذي درسنا لفترة وجيزة اقتصاد سياسي قبل أن يستدعيه سعيد النوبان للتدريس في كلية الاقتصاد بجامعة عدن. وكذلك جارنا المرحوم حسن بن عبيد الله السقاف، الذي كان يدرسنا تربية إسلامية. وأذكر أن الطلبة في المستوى الثالث لم يكونوا حريصين على حضور المادة، وعندما أذكّر الأستاذ حسن - الله يرحمه- أنه (عندنا حصة) يسألني: (وهل فيه طلبه في الفصل؟). ونذهب معا إلى الصف، وبعد أن يتأكد أنني أحفظ تماما سورة يس يكتب في السبورة مطلع قصيدة شوقي (نكبة دمشق: سلامٌ من/ صبا بردى/أرق/ ودمعٌ لا / يكفكفُ يا/ دمشق) ويطلب مني أن أقطعه عروضيا .

وفي أثناء دراستي في الثانوية كنت أقضي معظم العصريات في مكتبة الشهيد التي تمّ افتتاحها بجانب محطة البترول، وكان مديرها أبوبكر بارجاء ومساعده محمد بن قاضي اللذان كانا ينشغلان بالدورات التي تنظم في مقر التنظيم السياسي الجبهة القومية، يسلماني المفاتيح ويحملاني مسئولية المكتبة. وفي الحقيقة كان عدد القراء مرتفعا لأن المكتبة تقوم بإعارة الكتب، ويصلها بانتظام عدد كبير من المجلات العربية مثل: المصور وآخر ساعة وروزا اليوسف والموعد وطبيبك الخاص والطليعة الكويتية والعربي.

وفي المساء كنت أذهب أما إلى السينما أو اتحاد الطلبة، وهناك أصر (الكبار) على عدم السماح لي بمشاركتهم في لعبة الطائرة، لأن صغر حجمي يعد في رأيهم نقطة ضعف يستفيد منها الفريق الآخر. لهذا كانت أقلام رعاة البقر أو الهندية أرحم. والسينما كانت أمام المكتبة.

حتى عام 1975، كانت مناهج الثانوية العامة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية مصرية بنسبة 90٪، وتعد الامتحانات وتصحح في مصر. وبعد نحو شهرين من انتهاء الامتحانات، في صيف عام1974، كنت مواظبا

على العودة للبيت بعد صلاة العشاء والجلوس مع أمي - الله يرحمها - في الحوش (التكة)، وأستمع لبرنامج ندوة المستمعين من هنا لندن. وذات ليلة فوجئت بالمذيع يقرأ في إذاعة عدن أسماء الأوائل في امتحانات الثانوية العامة. وتهيأ لي أنه قرأ اسمي، لكنني لم أكن متأكداً، فسألت أمي، وردت: نعم اسمك الأول أو الثاني.

(7)

أيامي في مدرسة النهضة

في مطلع العام الدراسي 1974/1975، زرت عدن مرتين؛ مرة لأتكرم ضمن أوائل الثانوية العامة في أول عيد للعلم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، والمرة الثانية للبحث عن منحة، أو الالتحاق بكلية التربية العليا، إذ أن الرئيس سالمين كان حينها قد طلب من الأستاذ سعيد عبد الخير النوبان، الذي كان قائما بأعمال وزير التربية والتعليم، إلحاق جميع خريجي الثانوية العامة لذلك العام بكليتي التربية (عدن والمكلا)، بالقوة، وذلك لحل مشكلة نقص المدرسين.

وبما أن الوزارة وافقت في النهاية- على ابتعاث أوائل الجمهورية للدراسة في الخارج في العام التالي، عدت إلى سيئون مع بعض الزملاء، فوق سطحة (زيزو) سعيد جروان، عبر الطريق الصحراوي (الداخلي). وقد قضينا نحو أسبوع في الطريق؛ وكانت الساعات التي قضيناها في (دهف)

السيارة، التي لم تكف عن الغرق في رمال الصحراء، وحمل (البتر)، والبحث عن حطب للطباخة، أطول بكثير من الساعات التي قضيناها فوق (سطحة) السيارة!

وفي سيئون، في انتظار المنحة، كان عليّ أن أمضي عاما في الخدمة الوطنية، أي في التدريس بدون راتب. وقد عيّنني مكتب التربية- سيؤن، أولا، في المدرسة الإعدادية في بلدة قسَم شرقي تريم. وحينما ذهبت إلى هناك اكتشفت أن المدرسين يعيشون في عزبة، وكل واحد منهم يدفع مبلغ عشرين دينار تكاليف الأكل والسكن. وعليه رجعت إلى سيئون وأخبرتهم أنه لا يمكنني تحمل نفقات العزبة، وبالتالي البقاء في قسم، فنقلوني إلى إعدادية حوطة أحمد بن زين. لكن الأستاذ أحمد بن صافي، الله يرحمه، توسط لي وقال: "ما دامك الأول في الجمهورية، زح مدرسة النهضة، وخلي عيالنا كلهم أوائل".

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى مدرسة النهضة وسط سيئون، وعندما دخلت من البوابة الرئيسة، كان أستاذي ميم السقاف، مدير المدرسة، والأستاذ محبوب فرج أمان النائب السياسي، وبعض المدرسين قد أخرجوا التلاميذ من

عدد من الصفوف، وشرعوا في إملاء نص معين عليهم، بهدف اكتشاف تلميذ كتب شتائم ضد مدير المدرسة في ورقة وعلقها على أحد الجدران. وأشركوني بالطبع في عملية التحقيق، كان علينا أن نكتشف الطالب الذي يكتب كلمة (اللجنة) بلام واحدة. والمصيبة أن 90٪ من الطلبة كتبوها بلام واحدة؛ ربما ليس من قبيل الخطأ، بل رغبةً في التضامن والتمويه!

وبعد أن اكتشف زملائي المدرسون في المدرسة انضمامي إليهم، سارعوا جميعا في كتابة طلبات إعفاء من التدريس في المستوى السادس، الذي كان حينها المستوى الأخير من المرحلة الإعدادية، أي أن إدارة التربية هي التي تقوم بامتحان تلاميذه في نهاية العام. وقد قبل المدير طلبات الجميع وتم تكليفي بتدريس معظم مواد المستوى السادس: لغة عربية ولغة إنجليزية وتربية إسلامية، وتربية فنية وتربية وطنية ....الخ. وفوق ذلك كلفوني بتدريس الرياضيات في المستوى الخامس.

بالإضافة إلى ميم السقاف ومحبوب فرج أمان، كان من بين زملائي، أعضاء هيئة التدريس في مدرسة النهضة: حبشي السقاف، وعلوي السقاف (الكاتلي)، وسالم مصطفى

السقاف، وطه السقاف (رباعي)، ومحمد بن بصري الذي كان يرفض استلام المرتب من الحكومة التي جعلت مدرسة النهضة مؤسسة حكومية. وكان عدد المدرسين المعينين في مدرسة النهضة كبيرا جدا، لكني لم أكن أرى بعضهم إلا في ليالي الأنس و(العشيات) الجميلة، التي يحرص على تنظيمها علوي الكاتلي في حوش آل بن جديد في (علم بدر)، شهريا.

وكان عدد من المدرسين (مشغول عن التدريس) باجتماعات المنظمة القاعدية، أو بصلاة الجنازة في مسجد طه، والمساجد الأخرى التي تقع بجوار المدرسة. وربما أنهم استخدموا الاجتماعات الحزبية وصلاة الجنازة ذريعة للخروج لشراء الخضار من السوق، إذا أنهم، عند عودتهم قبيل جرس الانصراف، كثيرا ما يقدمون لنا حزما طازجة من البقل.

وكان المدير ميم السقاف يعقد لنا اجتماعات أسبوعية، وكان الزميل علوي الكاتلي يقدم لنا خلالها فناجين الشاي والبقل. أما الزميل محمد بن بصري، فكان يحرص أن يقدم لي في كل اجتماع آخر القصائد التي كان يكتبها أو يترجمها من اللغة الإنجليزية. وإذا لم تخني

الذاكرة يقول في مطلع إحداها (Twinkle twinkle, Little star, for your heart I say a pray)، وقد تذكرت تلك القصائد حينما أهداني صديقي محمد قبل سنوات، ديوانه (لمن يغني العصفور؟).

وسرعان ما تبين لي أن كثيرا من طلبة المستوى السادس كانوا جيراني أو أصدقائي؛ منهم: يحيى واكد وخالد المساوى وخالد سالم مصطفى السقاف، وعبد الله برك بالطيور، وعدنان علي السقاف، ومحفوظ بكار، وهود أبوبكر السقاف، وجاري مبارك سعد الذي أكدت لي أمي أننا، أنا وهو، ولدنا في الليلة نفسها، وكان بين تلاميذي من هو أكبر مني سنا. وفي الصفوف الدنيا تعرفت على حبشي بن عقيل ومجموعة من التلاميذ الذي لم يسمحوا يوما لأي مدرس أن يكمل معهم الحصة بسلام. وفي الحقيقة، منذ أيامي الأولى تبين لي أن معظم التلاميذ كانوا يمارسون الشغب المتطرف مع جميع المدرسين، وهو ما دفع زملائي المدرسين رفض التدريس في المستوى السادس. وكان ميم السقاف لا يزال حينها يمارس الضرب في المدرسة، وسبق أن ضربني يوما حينما كان يدرسني في مدرسة القرن.

بالنسبة لي، لم أكن أتحمل الفوضى في الصف، لكني أرفض مبدئيا ضرب التلاميذ ، ومع ذلك فقد اضطررت، في أحد أيامي الأولى في المدرسة، أن أصفع أحدهم في وجهه، ففقد وعيه واضطررت أن آخذه في سيارة أجرة إلى المستشفى، لكنه استفاق، وعاد كما كان، مثل الحصان، قبل وصولنا إلى المستشفى.

وكنت ألتقي بكثير من تلاميذي عند شباك سينما سيئون وحول طاولة البينج بونج في مقر اتحاد الطلبة، وفوق (ساس) ساقية البلاد (شارع الجزائر)، أمام مكتبة الشهيد. وكانوا يعرفون تماما أنني مسافر للدراسة في الخارج، وقبلوا أن نكون معا فرقة للتمثيل، وقمت بكتابة مسرحية لم يجزها الأستاذ المؤرخ جعفر السقاف، مدير مكتب الثقافة ورئيس لجنة النصوص حينها، إلا بعد أن أجبرني على تعديلها مرات عدة. وقد مثلناها في عيد المدرسة، وفي الرحلة التي نظمتها المدرسة إلى مدينة ساه.

(8)

التحضير للسفر إلى فرنسا

في عصر يوم الأربعاء 14 مايو 1975، بينما كنت في قمة أطول نخلة من نخيل (مزرعة بير نفيسة) في قرن سيئون الطويلة، حضر الزميل صالح هادي مطبق، الذي كان صديقا حميما لأخي سالم، وصاح بأعلى صوته: "حصّلنا منح". وكنت أنا الذي قمت بتعبئة استمارات طلب المنح الدراسية له ولي قبل نحو ثلاثة أشهر. وأضاف: "يا تعطيني منحتك؟" رديت عليه: "ومنحتك؟" وقال: "أنا منحتي إلى روسيا". فسألته: "ومنحتي؟". وحينما قال "إلى فرنسا" ارتخت عضلات يداي، وكدت أسقط من أعلى النخلة، لولا أن رجلاي تشبثت بالجذع بقوة، وتماسكت نفسي وتسحللت (انزلقت) للأسفل بسرعة تفوق سرعة هبوط مصعد برج إيفل، وصافحت صالح الذي ظل راكبا دراجته النارية السوزكي الـ(cc125)، وسألته مرة ثانية: "إلى فين منحتي؟"، ورد: "إلى فرنسا". وبصراحة اعتقدت أنه يمزح؛

ففي تلك الفترة، معظم المنح التي تعطى لطلاب جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية كانت من دول المعسكر الاشتراكي وبعض الدول العربية، ولم أكن أعرف أن فرنسا كانت تقدم بعض المنح لخريجي الثانوية العامة. ثم أكد صالح أن ما يقوله صحيح، وأن علينا أن نستخرج جوازات ونسافر إلى عدن لإنجاز إجراءات المنح هناك.

وعندما أخبرت والدي وأخواني بخبر المنحة فرحوا كثيرا لأنها لم تكن إلى روسيا كما كان متوقعا، وعندما انتشر الخبر في حي القرن، تقاطرن الجارات ليحذرن الوالدة من السماح لي بالسفر إلى "بلاد النصارى العرايا". لكنها كانت، رحمها الله، حكيمة وفهمت دوافعهن، ونذرت (شنقيتين أمل) للشيخة سلطانة بنت علي في حال توفيقي في الحصول على المنحة، وسفري إلى بلاد النصارى. وشجعتني على البدء في تعلم كلامهم. وفي الحقيقة، عصر ذلك اليوم الأربعاء، قبل الذهاب إلى مكتبة الشهيد، مررت بإحدى مكتبات بيع الكتب في سوق سيئون واشتريت كتاب (اللغة الفرنسية في خمسة أيام)، وشرعت في تعلمها. وقمت بإعادة كتب (الدون

الهادي) لميخائيل شولوخوف، و(الأم) لمكسيم غوركي، و(قصص قصيرة) لتشيكوف، إلى رفوف مكتبة الشهيد، التي كنت -كما سبق إن ذكرت- أساعد محمد بن قاضي وأبو بكر بارجاء في إدارتها، واستعرت بدلها (البؤساء) لفيكتور هيجو، و(الغثيان) لجان بول سارتر، و(الآنسة فيفي) لجي دي موباسان. باي باي الاشتراكية العلمية.

وفي صباح اليوم التالي، الخميس، بكرت أولاً لأداء القسَم مع طلبتي، تلاميذ مدرسة النهضة، وسط شارع الجزائر. وفي الطابور لم يفت زميلي محبوب فرج، النائب السياسي بالمدرسة، أن يعلق متهكما: "كيف عمشوش؟ أصبحت من أصحاب الرأسمالية!". وفي المدرسة وجدت أستاذي وزميلي عقيل السقاف بانتظاري، فقد تحصل هو الآخر على منحة إلى فرنسا. وذهبنا معا لتصوير شهاداتنا، فوتوغرافيا، ثمّ توجهنا إلى إدارة التربية التي عمّدت الشهادات (طبق الأصل)، وصرفت لنا تذاكر سفر بالطائرة سيئون-عدن-سيئون، وخطابا لإدارة الهجرة والجوازات لصرف جوازات سفر إلى فرنسا وأربعة بلدان أخرى فقط. ولم ندفع لهم إلا حق طوابع الدمغة.

في نهاية الأسبوع التالي، سافرنا إلى عدن عبر مطار الغرف، ونزل عقيل السقاف عند أخيه في حي أكتوبر بخور مكسر، أما أنا فقد نزلت في مكتب (آل مساوى) وسط كريتر، وكان مكتظا بعدد كبير من أبناء سيئون الذين يدرسون في عدن ولحج. وتوجهت قبيل الظهر إلى مكتب البعثات في إدارة التربية والتعليم في خورمكسر، وهناك كان زميلي عقيل بانتظاري، واستقبلنا عبد العزيز إبراهيم -وهو أول شخص رأيته يمضغ التنبل- بحفاوة ليس لها نظير، ووجّه الموظف الشاب عبد الرحمن محفوظ بن شعيب، أن يصرف لنا استمارات الترشيح للمنحة، ورسالة للسفارة الفرنسية، التي لم نتمكن من الذهاب إليها إلا يوم السبت التالي .

وقضيت الخميس والجمعة مع عدد كبير من زملاء دراستي في الثانوية العامة، الذين كانوا قد التحقوا بالدراسة في كلية التربية عدن، ويسكنون في داخليتها. منهم عبد المطلب جبر وعبد الحافظ باحشوان وعلي بن شهاب. وكان معظمهم يترددون على مكتب آل المساوى، الذي كان يعد كذلك البريد الرسمي لنا جميعا. ومن عاداتهم الرسمية، شرب الشاي في مقاهي شارع المعلا،

وتناول وجبة الغداء، صيادية، في مطعم جمال بالمعلا، ووجبة العشاء في مطعم زمزم في كريتر، والذهاب للسباحة في ساحل جولد مور كل يوم جمعة. وبما أني قضيت يوم الجمعة برفقتهم فقد التزمت بطقوسهم، وقبل أن يستودعوني حلفوني ألا أنساهم عند عودتي في الصيف من فرنسا. وكانت طلباتهم محددة جدا.

وفي صباح يوم السبت ذهبت مع عقيل السقاف للسفارة الفرنسية، وفيها أخذوا جوازاتنا. ولأنه لم تكن بحوزة كل منا تسع صور شخصية فقد اضطررنا للذهاب مرة أخرى صباح يوم الأحد، وطلبوا منا الاستعداد للسفر في مطلع شهر سبتمبر. وعرجنا على مكتب اليمداء، وحجزنا مقاعد للعودة إلى سيئون فجر يوم الاثنين 19 مايو 1975.

(9)

في مطار الغرف

يوم السبت، غرة رمضان من سنة 1395 هـ، الموافق للسادس من شهر سبتمبر من سنة 1975م، بعد صلاة التراويح، مر علينا الجار طه علي السقاف، الذي كان يعمل في إدارة التربية بسيئون، وأخبرني أن عليّ الحضور صباح اليوم التالي إلى الإدارة لأخذ تذكرة طائرة للسفر إلى عدن ومنها إلى فرنسا. وفي الصباح توجهت إلى مكتب التربية، ثم إلى مكتب اليمدا. وبعد أن استلمت التذكرة للسفر يوم الثلاثاء الثامن من سبتمبر، مررت بالبنك الأهلي اليمني وطلبت من صالح بن مزروع، الذي كان ابن أخت الوالد ويعمل في البنك، أن يساعدني على تحويل مئتي دينار إلى دولارات أمريكية، لكنه اعتذر وأخبرني أن ذلك لن يتم إلا بوجود الجواز والتأشيرة وتذكرة السفر إلى فرنسا، وطمأنني مؤكدا أنني أستطيع صرف الدنانير بشكل روتيني في عدن.

وفي مساء اليوم التالي، دعا الوالد جميع أخواني وأخواتي وعائلاتهم للإفطار وتوديعي. ويوم الثلاثاء، بعد صلاة الفجر ودعتني الوالدة والدموع تملأ عينيها. وقالت لي بعد أن أعطتني نسخة صغيرة من (حصن الحصين) وسجادتها: "لا تترك الصلاة قط، وكتب لنا أول ما تصل فرنسا". ثم ودعت الأخوان والأخوات. أما الوالد فقد حرص على توديعي، بمفرده، عند بوابة المزرعة، إذ أن لديه كلمات لا يريد غيري أن يسمعها. وأبكتني كثيرا. كان، الله يرحمه قد رفض سفر ابنه البكر للعمل في السواحل بعد أن استخرج له أبناء أخته، آل بن مزروع، الجواز والتذاكر. فقد كان الوالد يرفض مبدأ ترك حضرموت. لكن التعليم زين، والرسول قال أطلب العلم ولو في الصين. وأنهى كلماته قائلا: "الله الله في الجودة". وقطع خلوتنا الجار عبد الله محمد سالم السبايا (عبادي)، الذي كان مسافرا هو أيضا إلى عدن للدراسة في بلغاريا، وحبذ الذهاب معي إلى مطار الغرف، حينما عرف أن صهري سعيد مطينقا (سعدان)، الذي كان يعمل في المطار ويسوق (لاند روفر) اليمداء يوميا إلى الغرف، سيمر ليأخذني. ولم يتأخر الصهر في الحضور. ووصلنا مطار الغرف بعد عشرين

دقيقة، أي في تمام السابعة والنصف. وكان عقيل السقاف قد سبقنا في الوصول إلى هناك .

كان من المفروض أن تصل طائرة اليمدا، الدوجلاس، من عدن في تمام الساعة الثامنة. وبعد أن أنهينا إجراءات السفر، التي كانت بسيطة؛ فبما أن الرحلة داخلية، فقد كانت الإجراءات مجرد استلام للتذاكر وشحن للعفش، وانتظار في تلك البقعة الصحراوية المقفرة. ولم يكن بداخل المطار إلا غرفة واحدة للانتظار مخصصة للنساء، وحمام بدون ماء. أما نحن الرجال فقد تركونا نجلس في ظلال المبنى. وفي الحقيقة تمدد معظمنا. ونمنا. ولم أستيقظ إلا بسبب حرارة الشمس، وذلك بعد أن تلاشى الظلال، حوالي الساعة الحادية عشر. فالطائرة تأخرت في عدن بسبب خلل فني. وجميع من حولي كانوا كذلك مستيقظين ويتصببون عرقا. وكان بعضهم قد ذهب إلى البئر الذي يقع غربي المطار وبجواره سقاية ونخلة وحمام للرجال. وقاموا بنزح الماء من البئر للوضوء أو الاغتسال لتخفيف الحرارة. وعندما حان وقت صلاة الظهر انتقلنا إلى الجانب الشرقي من مبنى المطار الذي أصبح به طرف من الظلال. وتركنا الوسط لأحد السادة الذي يبدو من مظهره

أنه رجل دين وتقي. واقترب منه مسافر كان مرتديا معوزا ومتعمما بثاني وملتحفا بثالث، وسأله: "يا حبيب، الآن نحن نعتبر مسافرين، أو لا؟ ممكن نقصر ونجمع الظهر مع العصر؟". ورد عليه الحبيب: "نعم، الدين يسر وليس عسر". وفرح الرجل، بل الجميع، بالفتوى، وتوجهوا نحو البئر واحدا تلو الآخر. وأدى الجميع الصلاة جمعا وقصرا. وظلت الطائرة في علم الغيب. وطمأنا الحبيب أنها لن تتأخر في الوصول.

وعند الساعة الثانية ظهرا اقترب المسافر نفسه من الحبيب مرة ثانية، وسأله: "يجوز لنا أن نفطر في هذا الحر؟" ورد عليه الحبيب: "نعم يجوز، بس عليك القضاء: (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر)، وشفنا معي قرصين مكعك من حق تريم، مسك ذا واحد هدية مني لك ."وأخذ الرجل القرص وأكل نصفه، وعرض علينا أن نأكل مما تبقى من المكعك، لكن عقيل السقاف قال له: "لا شكر، لا يمكن أن أدخل النار بسبب فتفوت مكعك". وقام الرجل ونادى زوجته من داخل مبنى المطار، وسلمها النصف الثاني. وطلب منها أن تحضر له وشبته (مداعته) من الشنطة، وأن تنزح دلو ماء

من البئر. ورضخت المرأة لطلب زوجها وأحضرت الرشبة واتجهت بها نحو البئر. ونزحت الماء بيديها المخضبتين بحنا السفر، وملأت الرشبة بالماء وسلمتها لزوجها، الذي كان قد جمع بعض العيدان وأشعل فيها النار. وقبل أن يعمر البوري ويضع الجمر فوق التمباك، وسطنا نحن الصائمون، قال: "بصراحة أنا كل ليلة لازم لي من بوري بعد الإفطار، وما دام الحبيب فتى أننا في سفر وأعطانا المكعك. لازم من الرشبة". ويبدو أن الجميع تفهم حالة الرجل. لكن عبادي السبايا لم يمنع نفسه من التعليق قائلا لي ولعقيل السقاف: "لو ما صحت فتوى الحبيب، هذا البدوي با يدخل جهنم من أوسع أبوابها."!

وفجأة، ولحسن حظنا، وبعد أن استمتع البدوي بمداعبته، مرت الطائرة في مدرج المطار، واتجهت شرقا ثم عادت وتوقفت بقرب المبنى، وقمنا نتفرج على الركاب الذين نزلوا منها. وبعد نحو ربع ساعة صعدنا إلى داخلها. وفي تمام الساعة الثالثة والنصف كنا في طريقنا إلى مطار عدن.

(10)

ثلاثة أيام في عدن وجيبوتي

عصر يوم الثلاثاء 9 سبتمبر 1975، وصلت عدن متعبا، وصائما. وبعد أن اتفقت مع عقيل السقاف على اللقاء صباح اليوم التالي في إدارة البعثات، توجهت مع عبد الله السبايا إلى مكتب المساوى في كريتر، الذي لم يكن لحسن حظنا مزدحما؛ فالدراسة في كلية التربية العليا لم تبدأ بعد، وكلية الطب لن تفتتح إلا في مطلع شهر ديسمبر 1975. وفطرنا في المكتب، لكن وجبة العشاء تناولناها في مطعم زمزم، الذي كان يعج بالحضارم. وعلى الرغم من أن الجو كان في عدن رمضانيا فقد عدنا للنوم مبكرا تلك الليلة.

وفي صباح اليوم التالي، الأربعاء 10 سبتمبر 1975، ذهبنا مبكرين إلى إدارة البعثات، وفوجئنا أن الدوام الرمضاني لا يبدأ إلا الساعة العاشرة صباحا. وكان هناك عدد لا بأس به من الطلبة الذين ينتظرون لاستكمال إجراءات السفر

مثلنا. واكتشفت أن هناك ثمانية مبعوثين آخرين إلى فرنسا، إضافة إليّ وعقيل السقاف، منهم أبوبكر عبد الرشيد زميلان وعبد الله محمد قائد، وعمر باكثير وعلي عبده، وعمود حاج وفوزية سالم، والاثنان الأخيران من خريجي بكالوريوس كلية التربية العليا عدن، تخصص فرنسي إنجليزي.

وقبيل الظهر استلمنا من الأخ عبد الرحمن محفوظ جوازاتنا وبها تأشيرة السفر إلى فرنسا وتذاكر سفر إلى باريس عبر جيبوتي. وكان موعد حجزنا عصر يوم الجمعة 12 سبتمبر، وذلك بواسطة الخطوط الجوية الفرنسية .(Air France) وكان على كل واحد أن يقوم بتأكيد حجزه في (وكالة بازرعة للطيران) في المعلا. واتفقنا أن نذهب جميعا للوكالة في المساء، بعد صلاة التراويح .

وبعد خروجنا من إدارة البعثات توجهنا مباشرة إلى البنك الأهلي الذي كان يداوم حتى الثالثة عصرا، ولم يقبلوا أن يصرفوا لكل طالب أكثر من خمسمئة دولار، بسعر 7 شلنات للدولار الواحد. وهذا يعني أنه تبقى معي أكثر من 500 شلن. قررت أن أشتري منها شميزين وقرم صوف وثلاثة

بنطلونات. وفي الحقيقة لم يكن لديّ أي بنطلون غير البنطلون الكاكي الذي كنت أرتديه للذهاب إلى المدرسة الثانوية.

لذلك، في نهاية عصر ذلك اليوم خرجت للشارع الطويل بكريتر، الذي كان مزدحما بباعة السمبوسة والخمير واللحوح، وأصناف أخرى من المقليات التي يتهافت الصائمون على شرائها. أما دكاكين الملابس فجزء قليل منها كان مفتوحا. لذلك فضلت أن أشتري الملابس في المساء، بعد عودتي من وكالة بازرعة.

وفي المساء، بعد أن أكدنا الحجز في وكالة بازرعة للسفريات، اتفقنا أن نتجمّع، في اليوم التالي بعد صلاة الجمعة في شقة عمود حاج العمودي، الذي كان يسكن في إحدى شقق عمارة العمودي الملاصقة للوكالة، للتوجه معا إلى المطار. بعد ذلك عدت لمكتب المساوى وتوجهت إلى شارع الطويل مع عبد الله السبايا، لأنه كان يريد هو أيضا شراء بعض الملابس، ولديه خبرة كبيرة بدكاكين عدن، بما أنه كان يتردد عليها أسبوعيا أثناء دراسته في معهد ناصر للعلوم الزراعية بلحج خلال أربع سنوات.

كانت معظم دكاكين الملابس الرجالية في شارع الطويل تبيع شمزان وبنطلونات مفصلة ومخاطة محلياً، وتتوافق مع الموضة السائدة. وكانت موضة بنطلونات الشارلستون والشمزان ذات الرقاب الطويلة لا تزال منتشرة في عدن حينذاك، على الرغم من محاولات اليساريين في تنظيم الجبهة القومية الحد منها. وكان كثير من الشباب يرتدونها، وكذلك الرجال بمن فيهم الوزراء. وإذا كان جميع الشباب والرجال في عدن، الذين تأثر معظمهم بموضة الهيبز، قد خافوا من حلاقة شعرهم كليا واضطروا إلى تقصيره قليلا، فهم في الغالب تركوا زنانيرهم تلامس الفكين. ولم يتخلوا كذلك عن الأقمشة ذات المربعات والألوان الغريبة للبنطلونات والشمزان التي لا يمكن أبدا أن ألبسها في سيئون. لكنني كنت مسافرا إلى فرنسا، واشتريت شميزا فان زين برتقاليا غامقا وذا رقبة طويلة، وشميزا أبيض، وبنطلونات ذات فكة متوسطة: اثنين ذات مربعات وواحدا أسود.

وفي صباح اليوم التالي، الخميس، طلب مني عبد الله السبايا، الذي كان أبوه يملك دكانا مشهورا في سوق سيئون، مرافقته لشراء بعض الأواني البلاستيكية من

(بخاخير) سوق الجملة، الذي يقع خلف سوق النساء في كريتر. وعند اجتيازنا لسوق النساء تبين لي أن جميع النساء في السوق لم يحرقن شياذرهن، كما دعت إلى ذلك المشاركات في المؤتمر الأول للمرأة الذي عقِد في سيئون العام السابق، 1974. وعندما مررت في السوق في المساء لاحظت أنه لم يعد مليئا بروائح البخور العدني المتميز، التي كانت تغطيه عندما زرته العام المنصرم، ربما بسبب الأجواء الرمضانية، وربما لأسباب أخرى، منها فتح مصنع الطماطم في الفيوش قبل أشهر.

وظهر اليوم التالي، بعد صلاة الجمعة، أخذت حقيبتي الصغيرة وركبت تاكسي جماعيا، إلى المعلا. ونزلت أمام عمارة العمودي، وصعدت إلى الطابق الرابع، وكان باب شقة عمود حاج مفتوحا، فدخلت. وقد سبقني في الوصول علي عبده وأبوبكر عبد الرشيد زميلان وعمر باكثير وعقيل السقاف. ومثلما حدث في مطار سيئون طلب أحد الزملاء من عمود أن يتكرم بإسعافه بوجبة غداء لأنه مسافر. واعتذر عمود قائلا: "ما با أعطيك أكل، لكن الثلاجة قدامك، وأنت وربك سد."!

وفي الساعة الثانية نزلنا من العمارة وركبنا سيارة أجرة (بيجوت) إلى المطار. وكانت إجراءات السفر طويلة نوعا ما؛ فقد قاموا بتفتيشنا وتفتيش حقائبنا بشكل دقيق؛ كانوا يبحثون عما يمكن أن نكون قد أخذناه من دولارات غير الخمسمئة المصرح بها .

وفي تمام الساعة الرابعة دُعينا للتوجه إلى الطائرة، وفوجئنا أننا سنذهب إلى جيبوتي بطائرة داكوتا صغيرة جدا، تابعة للخطوط الجوية الجيبوتية وليس الفرنسية. وجلس بجانبي عمر باكثير، وكان مرعوبا، واعترف أنه يركب الطائرة لأول مرة، وتساءل عمر إذا كانت هذه الطائرة يمكن أن توصلنا إلى الجانب الثاني من خليج عدن، وقال: "أفضل لنا نروح بقارب إلى جيبوتي، أو حتى سباحة". ومع ذلك أقلعت بنا الطائرة، وفي الساعة الخامسة مساءً كنا في مطار جيبوتي.

وهناك أخبرنا أن رحلتنا إلى باريس ستكون عصر اليوم التالي، السبت 13 سبتمبر، وأخذونا إلى فندق متواضع داخل المدينة. وكان علينا أن نتناول الإفطار والعشاء والسحور وسط المدينة، على حسابنا. وفي الحقيقة كانت فرصة جيدة للتعرف على هذه المدينة التي

كانت لا تختلف كثيرا عن عدن إلا بهيمنة اللغة الفرنسية والقات بين سكانها، وكذلك بعدم ارتداء نسائها للشيذر (العباية)، واكتفائهن بوضع الدرع (فستان مصنوع من قماش حريري شفاف جدا) والمقرمة (غطاء الرأس) فوق الرأس، حتى في الشارع. وقبل أن نعود للفندق أصر عبد الله قائد وعلي عبده وعمر باكثير على شراء شكلين (حزمتين) قات هرري، مؤكدين أن سعره مناسب، وأرخص من عدن.

وفي تمام الساعة الثانية من عصر يوم السبت وصلنا مطار جيبوتي الذي كان عبارة عن صالة كبيرة ينتصب في جانب منها ميزان العفش وطاولتان لاستلام الجوازات والتذاكر. وقمنا بشحن حقائبنا مرة أخرى، وانتهت الإجراءات بسرعة. وتركونا ننتظر في تلك الصالة. وبعد أن انقضت الساعة الأولى بدأنا نتململ، وطلبنا من خريجي اللغة الفرنسية، فوزية سالم وعمود حاج، أن يستفسرا لنا عن الطائرة، وقمت معهما، لأتمرن على الاستماع للغة الفرنسية التي بدأت أتعلمها في كتاب (الفرنسية في خمسة أيام). وكان كل الذي سمعته

"Bientot bientot, attendez un peu!" قريبا قريبا، انتظروا قليلا".

وبعد أن مرت الساعة الثالثة، لم يحتمل عبد الله قائد الانتظار والصبر أكثر، وقفز من مقعده واتجه نحو إحدى النساء اللابسات الدروع الشفافة، اللاتي لففن (المقرمة) حول رقابهن بدلا من وضعها فوق رؤوسهن، واللاتي يبدو أنهن من أمن المطار المتنكرات في لباس مدني، وسألها: "متى يا تجي الطائرة ويا تخارجونا؟"، ولا ندري كيف عرف زميلنا أن المرأة تتحدث العربية، فقد سمعناها ترد عليه بهدوء: "أول هبّ لي عودين قات، وبعدين يا قول لك". وكان عبد الله قائد لا يزال يتناول قاته الهرري منذ الظهر، وبعد أن أعطاها ما طلبت قالت له: "الطائرة تأخرت قليل، لكنها بعد نصف ساعة يا تنزل، ويا ترجع فرنسا في الثامنة في الليل، يا نجيب لكم فطور على حسابنا، لا تخافون؟". وصدقت المرأة، وصلت الطائرة بعد نصف ساعة، وفي تمام الساعة الثامنة بتوقيت جيبوتي وفرنسا كنا بداخلها، وأقلعت باتجاه باريس مع توقف نصف ساعة في مطار مارسيليا."

(11)

يوم في باريس

في مطار جيبوتي، قبيل الساعة الثامنة من مساء يوم السبت 13 سبتمبر 1975، صعدنا طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، المتجهة إلى باريس. وقد أذهلتنا مشاهدة تلك الطائرة الحديثة والضخمة، التي كانت من طراز بوينج 707، ذبابة الداكوتا التي نقلتنا بحفظ الله ورعايته من عدن إلى جيبوتي. حتى أن الزميل عمر باكثير نسي كلياً الخوف من ركوب الطائرة، وكان أول من تسلق سلم الطائرة، وثباً. وكنت خلفه. وعند باب الطائرة سألتني المضيفة، التي بدت لنا جميلة في ثوبها البيج المنقط بشعارAir France ، عن رقم تذكرتي. وبما أنني لم أنتبه للأمر ناولتها التذكرة، وقادتني بنسقها إلى الصف الثالث، في مقدمة الطائرة، وطلبت مني الجلوس في المقعد الذي بجانب الممر وليس بجانب النافذة. وبعد دقيقتين جاءت المضيفة نفسها براكبين؛ أحدهما الزميل عبد الله محمد قائد الذي أجلسته في المقعد الذي بجوار النافذة، وفرحت

كثيرا أنها لم تضع فيه الراكب الآخر، الإفريقي ذا الأنف الأفطس، الذي أجلسته في الصف نفسه لكن في الجانب الآخر. وقال لها: "ميغسي مدام". وكان المقعد الذي أمامي من نصيب زميلي عقيل السقاف.

وبخلاف ما حدث في الرحلات السابقة، قامت إحدى المضيفات بشرح إجراءات السلامة، باللغة الفرنسية وباللغة الإنجليزية المكسرة، وقليل من الإشارات. وأشعرنا الطيار أن رحلتنا إلى باريس ستستغرق نحو سبع ساعات مع توقف نصف ساعة في مطار مارسيليا. وبعد عشر دقائق من الإقلاع، وزعت علينا مشروبات منعشة، واخترتنا، أنا وزميلي عمر وعقيل، شراب ليمون، أما جاري الإفريقي، فقد طلب نبيذا أحمر. وما هي إلا لحظات وبدأت المضيفات في تقديم وجبة العشاء. وتبين لي أن هناك فريقين من المضيفات: فريق يقدم الخدمات في مقدمة الطائرة، وآخر في المؤخرة. وأعطت المضيفة لكل راكب عشاءه في طبق بلاستيكي عريض. وكانت الوجبة مكونة من أرز وربع دجاج وجبن وقطعة من الخبز وقطعة من الأيسكريم. واكتشفت أن مكونات الوجبة تختلف من طبق لآخر؛ لأن عقيل سألني عما أعطوني، وعندما أخبرته

بما عندي نادى المضيفة وطلب منها تبديل طبقه، قائلا: "شيكن ورايس". ولبت طلبه في الحال، وأخذت اللحم وعصيدة أو هريسة البطاط (puree) التي كانت قد أعطيت له، والتي سيكون علينا أن نتعوّد عليها لاحقا في المطاعم الجامعية. وإضافة إلى تسليمنا الطبق كانت المضيفة تسأل الركاب عن الشراب الذي يفضلونه. وفي الحقيقة قليل هم الذين اختاروا مثلي الكوكا كولا، ويبدو أن غالبية الركاب اختاروا النبيذ بألوانه ودرجاته المختلفة. وبعد نحو نصف ساعة قامت المضيفات بجمع الأطباق الفارغة، وقدمن لمن يريد: قهوة (نيسكافه) أو شايا أو نبيذا أو حتى ما نسبة الكحول فيه تتجاوز الـ 11٪. وطلب كثير من الركاب المزيد. وبعد نحو ساعتين من الإقلاع، كان معظم الركاب، بمن فيهم جاري الإفريقي، قد (خمدوا) ويغطون في اللاوعي، إما بسبب تعب السفر وسطوة النوم، أو بسبب كرم (Air France) اللامحدود، وبالطبع، بسبب رغبة المضيفات في التخلص من (دوشة) الركاب في هذه الرحلة الطويلة. وفي الحقيقة، حتى أنا نفسي نمت، بسبب الكوكاكولا، الذي ربما كان مضروبا. ولم انتبه إلا حينما أيقظتني

المضيفة عند الساعة الثالثة صباحا، عندما كانت الطائرة تتهيأ للهبوط في مطار مارسيليا.

وفي مطار مارسيليا، غادر عدد من الركاب الطائرة. وأمرنا، نحن المسافرين إلى باريس، بالبقاء في مقاعدنا. وفجأة شعر معظم الركاب بالبرد، وطلب عدد منا أغطية، حتى جاري الإفريقي. ووزعت علينا بطانيات صوفية خفيفة جدا، يشبه لونها لون فساتين المضيفات. وبعد نصف ساعة أقلعت الطائرة مجددا، وواصلت رحلتها باتجاه مطار أورلي سود (Orly Sud) في باريس، الذي هبطنا فيه في الخامسة صباحا تقريبا. ونزل الركاب من الطائرة، وظل عدد منهم متدثرا ببطانياتAir France ، التي استخدمنها بعض الجيبوتيات مقارما تقي رؤوسهن من البرد .

وفي صالة المطار، كان علينا أولا أن نطبر أمام البوابة المخصصة للواصلين غير الفرنسيين، وكنا الأقلية، لهذا لم نتأخر، وانتقلنا بسرعة إلى صالة انتظار العفش، وكانت الحقائب قد بدأت تدور فوق السجادة الحديدية المتحركة التي لم تكن موجودة في مطاراتنا حينذاك. وعثرنا على جميع حقائبنا باستثناء شنطة الأخت فوزية سالم التي لم يضعها الجيبوتيون في الطائرة.

وخرجنا إلى صالة استقبال المسافرين، ولم نعثر على أحد في استقبالنا من طرف الـ (المركز الوطني للخدمات الطلابية الجامعية CNOUS)؛ فاليوم كان أحد؛ جمعتهم. وكان يفترض أن يكون هناك مندوب من طرفهم يسلمنا تذاكر قطار للمدن التي سندرس فيها. وربما كان غيابه من حسن حظنا؛ فقد قمنا بالتواصل مع سفارتنا في باريس، ورد علينا السفير الدكتور محمد عبد القادر بافقيه بنفسه، وأعطى توجيهات لمعظم أفراد طاقم السفارة بالمجيء للمطار لاستقبالنا ونقلنا لمبنى سفارة جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، في 25 شارع جورج بيزه، وسط باريس.

وفي غضون خمس وأربعين دقيقة كان أمامنا كل من خالد قدعق الملحق الثقافي، وحسين عقيل ومصطفى عبود، والسائق محسن عبيد العمري. وفي السفارة دخلنا قاعة كانت مخصصة للانتظار، ثم دخل الدكتور محمد عبد القادر بافقيه ورحب بنا، ثم قدم طاقم السفارة وطلب من كل واحد منا أن يقدم نفسه، وعندما قدمت نفسي، قال: "عمشوش.. من الغيل أو من سيئون؟" ثم سألني وهو يتفحصني: "وكذ كملت الثانوية؟". وفي الحقيقة

كان شكلي صغيرا جدا ولا يوحي بذلك. وعندما ردّيت عليه بالإيجاب ابتسم، وقال: "خلاص الليلة أنت وعقيل السقاف ضيوف على السيئوني مصطفى عبّود، والعمودي وفوزية سالم يروحون عند خالد فدعق، وياسين شاهر وعلي أحمد حسين وعلي عبده عند حسين عقيل، وأبوبكر عبد الرشيد زميلان وعمر باكثير يبيتون عندنا في السفارة، وبكرة الصباح، يا يأخذكم العمري للكنوز ويا تستلمون تذاكر القطار ويا تسافرون: عمشوش والسقاف وعبد الله قائد إلى بوردو، وأبوبكر عبد الرشيد زميلان وعمر باكثير وياسين شاهر وعلي أحمد حسين وعلي عبده إلى فيشي. أما فوزية سالم وعمود حاج فمكان دراستهم في باريس".

ومع عقيل السقاف خرجنا من السفارة برفقة مصطفى عبّود، شقيق عبد الكريم عبّود الذي درّسني في مدرسة القرن الابتدائية. وأخذنا مصطفى في سيارته السيتروين إلى عمارة قريبة من السفارة، في طرف جادة بينا. وهناك اكتشفنا أن شقتي خالد فدعق وحسين عقيل تقعان فيها أيضا. وبعد أن اتفقنا أن نفطر معا في شقة خالد فدعق، ضيوفا على الأخت فوزية سالم، طلبنا من مصطفى عبود

أن يفرجنا على بعض معالم باريس، وقبل ذلك لكن بعد الساعة أربعة عصرا .

كان مبنى سفارة اليمن الديمقراطية، الذي أصبح بعد عام 1990 مبنى لسفارة الجمهورية اليمنية، يقع بين ساحة قوس النصر والشانزيليزيه من جهة وبين برج إيفل الواقع على ضفة السين من الجهة الأخرى. وبعد العصر أخذنا مصطفى عبود، ومر بنا قوس النصر، ونزلنا بالشانزيليزيه، ثم عطف بنا يسارا إلى ساحة التروكاديرو، التي تطل على برج إيفل ومجموعة من أجمل حدائق باريس.

وقبيل المغرب عدنا للشقة، وبعد أن أخذنا قسطا من الراحة انتقلنا إلى شقة خالد فدعق، ووجدنا الأخت فوزية تناضل لتحضر لنا فطارا مقبولا، وقالت إنه كان بإمكانها تحضير ما هو أفضل لو كانت حقيبتها، المليئة بالبهارات العدنية، وصلت مع العفش.

وبعد أن تناولنا الإفطار وتعشينا، اقترح علينا مصطفى عبود أن نصطحبه لزيارة صديقاته اللاتي يسكنن في الجوار. وقبلنا الدعوة باستثناء عمود الذي كان مرهقا وفضل النوم مبكرا. وخرجنا للشارع، وبعد أن سرنا خمس

دقائق تحت المطر دخلنا عمارة مشابهة للعمارة التي خرجنا منها، وصعدت لأول مرة في حياتي المصعد الكهربائي، وفي إحدى شقق الطابق الرابع فتحت لنا سيدة فرنسية تلبس ميني جوب وجوارب زرقاء، يرافقها طفل في حوالي التاسعة من العمر، ورحبت بنا، وقادتنا إلى قاعة استقبال فخمة. وبعد أن جلسنا بدأت تتحدث مع الأخت فوزية التي كانت تحدث الفرنسية، بشكل مقبول. وكان مصطفى عبود يتدخل من حين لآخر ليشرح بعض الكلمات. وقدمني مصطفى لصديقته. وبعد أن امتدحني كثيرا، قالت السيد: "Bravo!" وبعد لحظات دخلت سيدة أخرى تلبس كذلك ميني جوب، وكان لون جواربها حمراء. ووضعت كؤوسا فارغة فوق الطاولة الصغيرة، وفتحت زجاجة شامبانيا، وزجاجة أورانجينا. وفي نصف الأكواب سكبت شمبانيا وفي النصف الآخر أورانيجينا. وكنت جالسا بجانب الطفل الذي نهرته السيدة حينما أخذ كاس شمبانيا الذي أمامي وأراد أن يشرب منه. وقالت له، "Non, Philippe. C'est pour les grands!" لا فيليبب، هذا للكبار!" ووضعت أمامه كأس أورانجينا. وبعد دقائق استغفل فيليب السيدة وشرب قليلا من كأس الشمبانيا ونظر لي وهو يضع أصبعه فوق فمه،

وفهمت قصده، بل أنني تضامنت معه، وأخذت الكأس المخصص له وشربت نصف محتواه. وماهي إلا لحظات حتى أفرغ الصغير ما في كوبي وأكملت أنا ما في كوبه. ولا يبد وأن أحدا غيرنا قد انتبه للعبة.

وعند حوالي الساعة الحادية عشر مساءً ودعنا الفرنسيات وعدنا إلى عمارتنا. وفي الشقة أعطى مصطفى عبود لي ولعقيل مخدتين وبطانيتي صوف ثقيلة، وتركنا ننام في غرفة الاستقبال.

واستيقظنا في تمام الساعة السابعة صباحا، وبعد نصف ساعة أخذنا مصطفى عبود إلى مبنى السفارة. وهناك انضم إلينا عبد الله محمد قائد، وأخذنا محسن العمري في سيارة السفارة إلى الكنوز، الذي يقع في مبنى السكن الجامعي (ساراي)، الذي سأقضي فيه، برفقة زوجتي، سنوات تحضير رسالة الدكتوراه، من 1985 إلى 1988، وذلك في شارع جورج بيرنانوس، عند مدخل شارع سانت ميشيل، القريب من جامعة السوربون.

وفي الكنوز تم تسليمنا تذاكر سفر بالقطار إلى بوردو. وتوجهنا مباشرة إلى محطة اوسترليتز، وكنا محظوظين جدا، إذ كان هناك قطار مغادر إلى بوردو ومنها إلى

إسبانيا. وساعدنا علي العمري في العثور على عربة جميع مقاعدها غير محجوزة. وفي تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر من عام 1975، كنا مسافرين باتجاه الجنوب الغربي، حيث تقع بوردو، مدينة ميشيل دي مونتيني، وفرانسوا مورياك، والتي كان عمدتها حينذاك رئيس الوزراء الأسبق جاك شابان دلماس.

(12)

يومي الأول في بوردو

خلال رحلتي الأولى بالقطار من باريس إلى بوردو، صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر 1975، لم يحدث شيءٌ لافت. جلست في مقعد بجانب النافذة، وبجواري عبد الله محمد قائد، وأمامنا عقيل السقاف. وطوال الرحلة كنت أتفرج على الطبيعة الخضراء التي يخترقها القطار، وأقارن بينها وبين الطبيعة الصحراوية أو الجبلية التي تقع في الطريق بين سيئون وعدن. وطوال الرحلة لم يتوقف المطر، ولم نكف عن الحديث؛ وأخبرنا عبد الله محمد قائد، أنه من إحدى قرى الضالع، وأنه تزوج بعد امتحانات الثانوية العامة مباشرة، وينتظر ولادة طفله الأول. وأكد لنا أنه افتقد القات كثيرا.. والزوجة.

وعلى الرغم من أن قطار (الأكيتين L'Aquitaine) يفترض أن يكون سريعاً (اكسبريس Express)، إلا أنه

توقف أربع مرات قبل أن يصل بوردو؛ مرة في أورليون ومرة في تور ومرة في بواتيه ومرة في أنقوليم. وعند الساعة الثالثة والربع ظهرا بدأ القطار يخفض من سرعته وهو يخترق حقول العنب التي استطعنا أن نلمح فيها أعدادا كبيرة من الرجال والنساء الذي يسيرون وسطها لقطف العنب، والذين سنكون بينهم في مطلع خريف العام التالي 1976.

وواصل القطار التقدم ببطء لمدة خمس دقائق بمحاذاة نهر القارون، الذي يخترق الجانب الشمالي من بوردو، قبل أن يتوقف في محطة بوردو سانت جان. وبعد أن توقف أخذنا حقائبنا الصغيرة ونزلنا إلى بوابة الخروج، وشاهدنا أمامها موظفا من كروس بوردو يحمل عصا ثبتت في أعلاها لوحة مكتوب عليها (المركز الإقليمي للخدمات الطلابية الجامعية(Le CROUS)، وسرنا نحوه، وبعد أن عرضنا عليه أوراق التقديم التي لدينا صافحنا مرحبا، وقال لنا: "من هنا !Par ici" وسرنا خلفه إلى موقف السيارات. ووضع بنفسه حقائبنا في الخلف، وركبنا في السيارة. وقادنا عبر (جادة المارن Boulevard de la) Marne إلى ساحة النصر التي كان كروس بوردو -

حينذاك- يقع في مدخل أحد الشوارع الصغيرة المطلة عليها، ضمن مبنى يحتوي كذلك على سكن طلابي، والمطعم الجامعي المركزي.

وقادنا الموظف إلى مركز الاستقبال الذي كان في الدور الأرضي، وفيه استقبلتنا ثلاث موظفات، المديرة التي كانت مسنة نوعا ما، إذ أن شعرها كان أبيض، وقدمت لنا الموظفتين الأخريتين، مدام لكادو ذات الشعر الأشقر المائل للحمرة، والآنسة موليه التي كان شعرها أسود، ولو كان أزرق لكان أفضل. وبعد أن قدمنا للمديرة، الآنسة مارتان، أوراق التقديم وصورا فوتوغرافية، سلمتها للآنسة جينيفييف موليه، التي شرعت في طباعة البطاقات التي تبين أننا طلبة حاصلين على منح من الحكومة الفرنسية، بينما قدمت لنا مدام لكادو (نيسكافيه) سوداء حضرتها بنفسها فوق شولة غاز صغيرة جدا، قررت أن أشتري مثلها بعد أن تمعنت فيها جيدا.

وبعد أن انتهت الآنسة موليه من طباعة البطائق، ورسالة لقسم تدريس اللغة الفرنسة للأجانب في جامعة بوردو 3، ورسالة لمديرة السكن الجامعي (القرية الخامسة Village5)، ورسالة للقسم المالي الذي يقع في الدور

الثاني من مبنى الكروس، فهمتنا، بكلمات إنجليزية مفرنسة، أننا أول طلبة يمنيين يلتحقون بجامعة بوردو عبر الكروس، وأن علينا الذهاب صباح اليوم التالي، الثلاثاء 16 سبتمبر 1975، إلى قسم اللغة الفرنسية للبدء في الدراسة، وسلمت كل منا ظرفا كبيرا يحتوي على كتيبات وخرائط خاصة بمدينة بوردو والمدينة الجامعية. ثم استدعت السيد (قراس)، السائق الذي استقبلنا في محطة بوردو سانت جان، وأمرته أن يصعد بنا إلى القسم المالي، ثم ينقلنا إلى المدينة الجامعية (Le Campus)، الواقعة بين ضاحية بيساك وضاحية تالانس، في الطرف الجنوبي من المدينة. وفي القسم المالي أعطيَ لكل منا قسيمة من عشر تذاكر أكل في المطاعم الجامعية، ومئتي فرنك فرنسي، قدمة، وفهمنا أن علينا أن نمر في اليوم التالي لاستلام المنحة الشهرية.

وأوصلنا السائق إلى مكتب إدارة القرية الخامسة، الذي يقع في المبنى سي(Batiment C) ، وتركنا بعد أن قلنا له (ميغسي كثيرا!". وفي المكتب أخبرتنا المديرة أن على كل واحد دفع ضمان قدره ثلاث مئة فرنكا ليستلم مفتاح غرفته. وعندما قلنا لها إننا لم نستلم بعد المنحة،

وليس لدى كل منا المبلغ المطلوب، قبلت أن نجمّع ضمانا وأجرة شهر لغرفة واحدة، كتبتها باسم أكبرنا: عقيل السقاف .

وتتكون Village 5، التي تقع ضمن بلدية وشرطة بيساك، وبريديا ضمن إدارة تالانس، من ستة مبان محاطة بمساحات خضراء واسعة، وكل اثنين منها متلاصقان ولهما صالة استقبال واحدة. وفي يمين القرية، في الشمال، تقع كلية الآداب التي تضم قسم تعليم اللغة الفرنسية للأجانب، وفي اليسار المطعم الجامعي رقم RU33 ، الذي يسمى أيضا مطعم الغابة لأنه يقع في طرف غابة كبيرة تفصل ضاحية بيساك عن ضاحية تالانس. وبالقرب من القرية هناك كافيتيريا ومركز للأنشطة الثقافية، **Maison des activities Culturelles.**

وتقع الغرفة التي سلمت لنا تلك الليلة في المبنى(A) ، الملاصق للمبنى .(B) لهذا خرجنا من المبنى (C) الذي تقع فيه الإدارة، ودخلنا المبنى .(A) وعندما رأت البوابة (La concierge)الثلاثة السكان الجدد ، خرجت مسرعة من أمام طاولتها ، وطلبت منا الأوراق، واستغربت تماما حينما تبين لها أننا الثلاثة نريد النزول في غرفة واحدة. وبعد أن

استعصى عليها فهمنا اتصلت بإدارة القرية، وسلمتنا مفتاح الغرفة 228. وأمرت إحدى المنظفات (les femmes de menage) أن تقودنا إليها في الطابق الثاني. وبشكل استثنائي سلمونا كذلك زوجين شراشف إضافية. وكانت الغرفة حديثة مثل المدينة الجامعية كلها، لكنها صغيرة ولا تزيد مساحتها عن حوالي 12 مترا مربعا، صممت فعلا لشخص واحد. لكن من يومها أدركت أن لكل قانون وقاعدة استثناء، حتى في فرنسا. وتحتوي الغرفة على سرير خشبي ومكتب مع كرسي ووحدة تخزين وكرسي صوفا ومغسلة ومرآة ونظام اتصال داخلي. وتشترك غرف كل طابق في الحمامات والمراحيض والمطبخ: هناك خمسة حمامات وخمسة مراحيض لكل طابق، ومطبخ كبير، في الغالب الطالبات هن من يستخدمنه.

وعندما اقتربت الساعة من السابعة والنصف، وبعد أن استرحنا قليلا، فكرنا في العشاء، وتصفحنا الكتيبات التي سلمها لنا الكروس، وتبيّن لنا أنّ المطعم الجامعي رقم 3 يقع خلف مباني القرية الخامسة. وتفحصنا قسائم التذاكر التي سلمت لنا، وخرجنا للبحث عن المطعم. وفي

صالة الاستقبال سلمت علينا البوابة بابتسامة عريضة. وعندما عرضنا عليها تذاكر المطعم، جاءت باتجاهنا وقادتنا نحو المخرج، وأشارت لمبنى المطعم الذي يبعد نحو ثلاث مئة مترا من المبنى، وشكرناها، وعدنا معها إلى الصالة إذ أن عبد الله قائد فضل إحضار المظلة التي معه، لأن المطر لم يتوقف.

وفي المطعم فوجئنا بطابور طويل من الطلبة والطالبات الذين وصلوا قبلنا. وكانت حركة تقدم الطابور بطيئة نوعا ما، لهذا لم نصل أمام طاقم المطبخ والأكل إلا في تمام الساعة الثامنة. وبعد أن ركزت تماما على ما يفعله الذين قبلي اخترت، لعشائي الأول في بوردو، سوب (مرق) وصحن فريت (شيبز) وربع دجاج (وفي الحقيقة اكتشفت أن المطاعم الفرنسية لديها حيلة لتقسيم الدجاجة إلى أخماس وليس أرباع)، وزبادي وتفاحة. وفي وجبة الغداء يستبدلون المرق بسلطة. والخدمة في المطاعم الجامعية ليست ذاتية بشكل كامل، فأحد أفراد طاقم المطعم هو من يضع لك كمية الأرز أو الفاصوليا أو الشيبز وقطعة الدجاج أو اللحم، أما المكونات الأخرى فتأخذها بنفسك، تحت مراقبتهم. ولم يكن الحصول على طاولة

بها ثلاثة مقاعد فارغة سهلا. لكن في النهاية عثرنا عليها وتناولنا العشاء بصحبة ثلاثة طلبة من إقليم الباسك الفرنسي، وقد فرحوا بجلوسنا معهم لأنهم كانوا يدرسون في قسم اللغة الإنجليزية، ومارسوا إنجليزيتهم معنا. وعند الساعة التاسعة خرجنا من المطعم وكانت المطر شديدة جدا، وكنا ملتصقين نحن الثلاثة تحت مظلة عبد الله قائد حينما اقتربت طالبة لتحتمي هي الأخرى من غزارة المطر، وتلقائيا أبعد زميلنا مظلته من فوقنا وفضل أن يتحمل مع الطالبة، ولم نصل السكن (Batiment A) إلا وثيابنا مبللة تماما. لهذا حالما وصلت الغرفة أضفت إلى قائمة الطلبات المستعجلة: مظلة عريضة.

(13)

المستوى الأول فرنسي أ

في مساء يومي الأول في (Village5) القرية 5 ، تصفحت الكتيبات التي سلمها لنا الكروس عن مدينة بوردو، المحررة باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وعرفت أنها ميناء يتصل المحيط الأطلسي بواسطة دلتا نهر القارون، وأنها، مثل سيئون وشبام وتريم، تفتخر بتناغمها العمراني، الذي بفضله أدرجتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ضمن قائمة التراث العالمي، بوصفها تجمعا حضريا استثنائيا. ويعد شارع سانت كاترين من أهم معالمها العمرانية، ويعد أطول شارع مخصص للمشاة في فرنسا منذ القرن السابع عشر.

ومع ذلك، في مختلف اللغات، يعد اسم بوردو رديفا لاسم أشهر نبيذ طاولة في العالم. وعندما سألت أحد أصدقائي الجزائريين عن مدى صحة هذه المقولة أكد لي أنها مجرد ترهات وأساطير، وأنه ينبغي استبعاد نبيذ بوردو،

الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، من قائمة الكحوليات، وأنه لا ذوق يعلو فوق مذاق (سيدي إبراهيم) في هذا المجال.

وتفتخر بوردو كذلك بدينامية جامعتها، التي تضم أول كلية حقوق في فرنسا، وأشهر قسم لدراسات الاتصال، الذي أنشأه الأكاديمي، أستاذ السوسيولوجيا، الصحفي روبيرت إسكاربيت، الذي تزامن وصولي إلى بوردو مع تعيينه رئيسا لجامعة بوردو 3. وكان روبيرت اسكاربيت يحرر مقالات ساخرة وقصيرة جدا في عدد من الصحف الفرنسية منذ سنة 1949، وقد داومت على قراءة عموده الصغير الذي استمرت صحيفة (الليموند) في نشره في صفحتها الأخيرة تحت عنوان(Au jour le jour) ، حتى وفاته سنة 2000.

وتتضمن كلية الآداب بجامعة بوردو قسماً لتعليم اللغة الفرنسية، يستقبل في الغالب طلبة من الجامعات الأمريكية واليابانية والأوروبية، يقضون فيه العام الدراسي المقرر لممارسة اللغة الفرنسية في إطار تحضيرهم لبكالوريوس اللغة الفرنسية في بلدانهم. لهذا فالقسم لا يستقبل عادةً الطلبة المبتدئين من الدول

الأخرى إلا خلال أشهر الصيف. ولذلك، صباح اليوم التالي، 16 سبتمبر 1975، اكتشفت أنني وعقيل السقاف وعبد الله قائد العرب الوحيدون في مجموعة المستوى الأول التي ضمّتنا إليها، والتي كانت مكونة من اثنا عشر طالبا فقط. وكان معنا يونانيتان، إيفا أقصرنا جميعا، وماري أطول طالبة في الصف، والتي لن يقل جمالها عن جمال هيلين الإتاكية، وثلاثة يابانيون: مسيو ومدام سيهاو، و(المكعمته) كيماكو التي تفضل التمدد تحت الشمس فوق أعشاب الساحة على حضور الدروس، والهولندي اليهودي جوزيف الذي كان يسكن في وسط بوردو ويأتي كل صباح بدراجة هوائية باعها لي عند مغادرته بوردو في نهاية شهر أكتوبر، والبرتغالي برفيريو بينورو الذي أصبح صديقا عزيزا لي وطفت برفقته معظم مدن أسبانيا والبرتغال، واستضافني بمفردي في مدينته بورتو سنة 1977، ومع زوجتي في مارسيليا التي أصبح قنصل البرتغال فيها سنة 1986، والنيجيري المشاغب فيليب الذي كثيرا ما تصايحت معه، لأنه لا يترك غيره يشارك في الصف، والسويدية الشقراء آن التي كانت كل يوم تحضر أحد بنطلوناتها لتقوم المكنسة بتقصيره أو تطويله. وفي الحقيقة كان معظم الطلبة

الآخرين يمتلكون خلفية بسيطة في الفرنسية. بل أن مدام سيهاو اعترفت أنها وزوجها مسجلان في المستوى الرابع (لغة فرنسية) في طوكيو.

ومن حسن حظنا أننا وصلنا في الوقت المناسب، وحضرنا الدرس الأول من منهج (De Vive Voix) ، الذي كان حينها أحدث منهج لتدريس الفرنسية للمبتدئين الفعليين، والذي سأستخدمه في تدريس اللغة الفرنسية بمعهد اللغات الأجنبية بجامعة عدن اعتبارا من أكتوبر 1981.

وكانت مدرّستنا في الشهر الأول السيدة كلود ديبوي، وكانت مسنة وصاحبة خبرة طويلة، وتتركنا ساعات طويلة في غرفة المختبر نردد الدروس والتراكيب اللغوية، ونستمع لأغنية (Ne me quitte pas) ، لجاك بريل، وأغاني (Le Meteque , Ma liberte) لجورج موستاكي، الذي نظم له أوبسرفاتوار بوردو حفلة غنائية في شهر أكتوبر، وحضرناها بتذاكر.

واستمريت في الدراسة في تلك المجموعة إلى نهاية شهر أكتوبر. وفي مطلع شهر نوفمبر 1975، تركت المجموعة وزميليّ عقيل وعبد الله، وانتقلت إلى مجموعة أخرى،

معظم طلبتها كانوا أمريكيين، وأمريكيات لا يختلفن في القامة والجمال عن سكرتيرات البيت الأبيض. وكانت معنا كذلك فتاة إيرانية لا تفارقها امرأة إيرانية أخرى قالت لنا أنها أمها، لكن سرعان ما اكتشفنا أن زميلتنا كانت الأميرة فيروز والأم مربيتها وحارسها الشخصي. وكانت مدرستنا الرئيسة في تلك المجموعة مادمازيل ماري برور، التي أصبحت بسرعة طالبها المفضل، وغيرت ما كان قد ترسخ لديها من اعتقاد (فرنسي عام) بأن الأمريكي أذكى الناس إلى أن يثبت عكس ذلك، والعربي حمار إلى أن يثبت عكس ذلك .

وبفضلها استطعت أن أتقن اللغة الفرنسية بسرعة فائقة، وأن أنتقل في مطلع الفصل الدراسي الثاني من المستوى الأول إلى المستوى الثالث، الذي يمنح معادلة لبعض مواد السنة الأولى في قسم الآداب الحديثة بكلية الآداب بجامعة بوردو3. وقد استمريت في الكتابة إليها حتى نهاية الثمانينيات. وكانت لا تبخل علي بالجواب. لكن عندما أرسلت، في صيف سنة 1977، بطاقة بريدية (صورة لحديقة وقصر سيئون) لمدرستي الأولى كلود ديبوي، أرسل لي زوجها جوابا أبكاني كثيرا، إذ كتب

فيه: "شكرا كثيرا، ولا شك أن أستاذتك سعيدة جدا هناك لأنك لا تزال تذكرها، ادع لها بالرحمة والمغفرة".

وفي الحقيقة لم يكن إتقاني السريع للغة الفرنسية بفضل الانتظام في الدراسة داخل الصف فقط، بل كذلك بفضل الحياة في القرية5، والمدينة الجامعية بشكل عام. ففي جميع مباني السكن، كانت هناك صالات لمشاهدة التلفزيون، وفي صالات الاستقبال ستاندات يتم تحميلها بانتظام بأشهر الصحف اليومية في فرنسا، وبشكل خاص الليموند والسود ويست، أي الجنوب الغربي. وفي نهاية المبنى(A) ، كانت هناك قاعة للبومات، تنظم فيها حفلات راقصة صاخبة مساء كل سبت. وبفضلها حفظت كل أغاني الـ (Boney M)والـ(ABBA)، وجيمي كليف. وبفضل النيسكافيه وشولة الغاز التي اشترتها مع المظلة ثاني يوم من وصولي إلى بوردو، كان زملائي برفيريو والسيد والسيدة سيهاو وكيماكو وجوزيف وفيليب يواظبون على زيارتي بعد تناولنا طعام الغداء في المطعم الجامعي3، وقبل العودة للقسم لمواصلة الدراسة الساعة الثالثة ظهرا.

(14)

استكشاف بوردو

في الأسبوعين الأول والثاني من إقامتي في المدينة الجامعية الواقعة بين ضاحيتي بيساك وتالانس، اضطررت أن أتردد كثيرا على وسط مدينة بوردو في المساء بعد الدراسة. وكان هناك الباص نمرة (جي)، الذي يربط مركز بوردو بالمدينة الجامعية، ويقع موقفه الأخير بين كلية الآداب والقرية الثالثة، وله موقف أمام القرية5، وموقف على حافة ساحة النصر وسط بوردو، قريبا من الكروس والمطعم الجامعي المركزي. وهناك باصات أخرى تصل المركز بتالانس وبيساك، يمكن استخدامها للتنقل بين بوردو والمدينة الجامعية. وببطاقة الطالب يمكنني شراء تذاكر الباص بأقل من 40٪ من سعرها الأصلي. وبها يمكنني الحصول على خصومات في المكتبات والمسارح وحتى في بعض المتاجر.

وعندما ذهبت برفقة الزميلين عقيل السقاف وعبد الله قائد، أول مرة، لتناول وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي، أوقفني الحارس، الذي، بسبب مظهري الصغير، استبعد أن أكون طالبا جامعيا، وقال لي: "لا، ما أتى بك إلى هنا، يا صغيري؟ هنا لطلبة الجامعة فقط". وفهمت سبب اعتراضه، وأخرجت له بطاقتي الجامعية. فاحتضنني وتفوّه بكلمات مديح لم أفهمها، وتركني ألحق بزميليّ. وفي الحقيقة، مظهري الصغير، الذي سبق أن ذكرت أنه جعل زملائي العمالقة في الثانوية العامة يرفضون مشاركتي لهم في كثير من الألعاب، لا سيما كرة الشبكة، سبّب لي كثيرا من المشاكل أثناء العام الأول من إقامتي في فرنسا؛ فهناك بعض المطاعم وقاعات الرقص لا يدخلها إلا الكبار. الكبار الذين لا يفهمون شيئاً، كما يقول الأمير الصغير في روايته الشهيرة التي كتبها سانت إكزوبري. والفائدة الوحيدة التي جنيتها من مظهري الصغير تكمن في استطاعتي شراء القمصان والبنطلونات من قسم الأولاد في الموتات. ويبدو أنهم في بوردو كانوا جميعا من أحفاد العملاق قارقانتوا، الذي كتب عنه ألفونس رابليه.

وفي البداية، كنا نحصر تسوقنا في بوردو داخل دكاكين ومولات شارع سانت كاترين، الذي لن يضاهيه في النظافة والازدحام أي شارع في فرنسا كلها، والذي يتحول بعد منتصف الليل إلى شارع للكبار فقط، ومكتبات شارع باستور الذي تقع فيه (مكتبة مولا)، أشهر مكتبة في بوردو، والتي كانت تضع في الخارج طاولات تباع فوقها كتب مخفضة، واشتريت منها جميع كتب مادة اللغة الفرنسية لتلاميذ الثانوية العامة، ومكتبة (مون ليفر)، المتخصصة في كتب تعليم اللغات الأجنبية، التي يمتلكها فرنسي مسلم من أصل تركي. وعندما ذهبنا لمكتبته أول مرة، بعد وصولنا مباشرة، تمغن في أشكالنا، ثم أعطى لكل واحد منا كيسا بلاستيكيا به تمر تونسي، وقال لنا: "خذوا، هذا زكاة!". وفيما بعد اكتشفنا أن هناك مولات كثيرة، قريبة جدا من المدينة الجامعية، في تالانس وبيساك وقرادنيون، وأصبحنا نشتري معظم حاجياتنا من هايبر (كازينو-جييان)، الذي يقع على بعد أربعمئة متر فقط من فيلاج 5. وحتى (مكتبة مونليفر)، اكتشفنا أن لها فرعا خلف المدينة الجامعية.

وبالإضافة للتسوق والتواصل مع إدارة الكروس، كنت أذهب إلى بورد لزيارة صديقي البرتغالي بورفيريو بنيرو، الذي كان يسكن في 115 شارع بلفيل مع طالب برتغالي آخر اسمه فوستو يدرس الفنون التشكيلية، وعامل دهان برتغالي (فرفوش) نأخذه عادة معنا للعشاء في المطعم الجامعي. وعندما زرت مع برفيريو، عصر أول يوم أحد أمضيته في بوردو، صديقنا جوزيف اكتشفت أنه يسكن في غرفة صغيرة، تحت السطوح، في زقاق صغير متفرع من شارع سانت كاترين، تشبه الحياة فيه الحياة في شارع سانت كاترين بعد منتصف الليل، وبعض أزقة عدن قبل افتتاح مصنع الطماطم في الفيوش.

وعند ذهابنا للتسوق في بوردو، تعودنا، بعد تناولنا وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي، المطل على ساحة النصر، على الجلوس في مقهى تونسي يطل على الساحة، يقدم إضافة إلى الشاي الأخضر، مختلف أنواع الحلويات العربية. وكان يتردد عليه فرنسيون ومغاربة وجبيوتيون. وفي ذلك المقهى عرفنا أن هناك مطعما مغربيا يقدم وجبة الكوسكوس مقابل تذكرة الأكل الخاصة بالمطاعم الجامعية، كل يوم جمعة وأحد. وفيه قابلنا

مرة أخرى الطالبات الباسكيات اللاتي شاركناهن الطاولة في المطعم الجامعي رقم 3، يوم وصولنا إلى بوردو.

(15)

المستوى الأول فرنسي ب

في شهر أكتوبر 1975 أصبحت ضمن المجموعة المتقدمة من المستوي الأول. وكما ذكرت أصبحت مدرستي الرئيسة فيها مازمازيل ماري برور، التي كانت تستخدم منهجا سمعيا بصريا متقدما(Lecons de Transitions) ، يعد الجزء الثاني من منهج (Voix et Images de France). وتولت مازمازيل برور كذلك مهمة تدريبنا على قراءة النصوص الكتابية واستيعابها. ومثل معظم مدرسي اللغة الفرنسية كانت تحب تدريس الفرنسية من خلال قصائد هوقو وبريفير ونصوص سانت اكزوبري، لكنها درستنا كذلك نصوصا جميلة مترجمة، مثل قصة (الوردة والعندليب) لأوسكار وايلد. ودربتنا كذلك على الكتابة باللغة الفرنسية، وعندما طلبت منا أن نكتب عن أي شخصية أعجبنا بها كتبت لها تقديما للشيخة سلطانة بنت علي، التي كنت أزور

ضريحها الواقع في حوطة سلطانة شرقي سيئون، بانتظام بصحبة أمي، والتي رفضت الزواج. وفي هذه المجموعة كان لدي مدرس آخر: مسيو جاك مارتان الذي درسني، إضافة إلى الحضارة الفرنسية، نحو اللغة الفرنسية بطريقة ذكية جدا، وكان يشجع الأمريكيين على مقابلة الصيغ الزمنية في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وشجعني على المقابلة بين اللغتين الفرنسية والعربية. وساعدنا أسلوب المقابلة على استيعاب النحو الفرنسي بيسر.

وكانت نتيجتي في نهاية الفصل الأول من العام الدراسي 1976/1975 جيدة إلى درجة أن مسيو جاك مارتان أوصى بنقلي مباشرة للمستوى الثالث، وأقنعني أن التحق ببرنامج دبلوم اللغة الفرنسية التجارية، الذي يشرف عليه، والذي يتضمن بعض المواد التي تدخل ضمن برنامج الدراسة في المستوى الثالث، الذي التحقت به في مطلع يناير 1976. وكان ذلك البرنامج يتضمن ثلاث وحدات دراسية مركبة ومعقدة وصعبة (modules ou unites de valeurs)، وتمنح في نهايته شهادة وطنية تعترف بها وزارة التعليم العالي الفرنسة والسوق الأوروبية المشتركة،

والجامعات التي تربطها اتفاقيات ثنائية مع جامعة بوردو3. وهناك (وحدة اللغويات)، التي تدرب الطلبة على استيعاب النصوص وتمرنهم على إتقان مهارات التحليل والتلخيص المختلفة(analyse resume et synthese) ، ووحدة التخصص الذي يختارها الطالب من بين وحدتين: أما (وحدة تدريس اللغة الفرنسية للأجانب)، التي كان الفرنسيون يشجعوني على اختيارها، أو (وحدة الدراسات الأدبية)، التي تمنح معادلة لثلاث من مواد المستوى الأول في كلية الآداب، وهي التي اخترتها، ووحدة ثالثة إجبارية: (وحدة الثقافة)، التي بواسطتها تعمقت في فهم التاريخ والجغرافيا والحضارة الفرنسية.

وفي هذا المستوى كان مقررا علينا دراسة النص الكامل لرواية (تيريز ديكيرو) التي ألفها روائي بوردو الأول فرانسو مورياك سنة 1927. يبدأ الفصل الأول من تلك الرواية بخروج تيريز، التي حاولت تسميم زوجها برنار، من قاعة محكمة بوردو ليلاً والإفراج عنها لعدم وجود أدلة كافية، وعدم ثبوت الجريمة. ولن يتم مقاضاتها من قبل العدالة مرة أخرى، على الرغم من أن الجميع يعلمون أنها جانية، فالراوي استطاع أن يجعل المتلقي يتعاطف معها،

ويشعر أنها ضحية ظروف قاهرة وليست مجرمة حقا. وجاء والدها لاصطحابها برفقة المحامي. إما زوجها فقد انتظرها في ممتلكاته الزراعية الواسعة بأرجلوز، التي تقع جنوب بوردو.

وأثناء رحلتها الليلية من بوردو إلى أرجلوز، ظلت تيريز تتذكر حياتها السابقة وتفكر فيما ستقوله لزوجها برنارد عندما تواجهه، وكيف ستدافع عن نفسها، وحضرت اعترافا طويلا لبرنارد تشرح فيه ما حدث بصدق، بما في ذلك نيتها التخلص منه بالسم. ثم تتركز الأحداث على كيفية عقاب برنارد لتيريز، فقد حبسها في غرفة معزولة بالمنزل، ولم يسمح لها بالخروج ومقابلة الناس، إلا يوم الأحد في الكنيسة، وذلك مراعاة للمظاهر الاجتماعية. ثم قرر الإعلان أنها فقدت عقلها، وحبسها كليا مدة طويلة، قبل أن يأخذها إلى باريس، ويتركها تهيم في شوارعها دون معين.

في المستوى الثالث، كان عليّ كذلك أن أدخل المحاضرات التي يقدمها أساتذة في المدرجات حول رواية (الأحمر والسود) لإستاندال، ورواية (الأب قوريو) لهونوره دي بالزاك في المدرج رقم 700. وأتاحت لي تلك

المحاضرات التعرف على بعض الطلبة الفرنسيين. وفي إحدى المرات سألتني إحدى الطالبات الفرنسية عن المكان الذي جئت منه. وعندما قلت لها: "من اليمن الجنوبية". قالت: "وأين تقع اليمن الجنوبية؟" ورديت: في جنوب الجزيرة العربية". فعلقت: "أوه معكم بترول كثير هناك!". وكان الغرب قد عانى كثيرا بين سنة 1973 وسنة 1977 من ارتفاع أسعار البترول إثر استخدام العرب (للمرة الأولى والأخيرة) للنفط سلاحا لمؤازرة القضية الفلسطينية. ولم تصدق الطالبة أن النفط في تلك الفترة لم ينسكب بعد من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها. وتفادياً لتكرار ذلك الاتهام، دأبت على التأكيد - للراغبين في معرفة موقع البلاد التي أتيت منها- أن اليمن الجنوبي يقع بالطبع في أمريكا الجنوبية. واكتشفت أنهم، في مكتب شرطة بيساك، كانوا حينها يضعون ملفاتنا مع الوافدين من عمان في خانة (جنوب شبه الجزيرة العربية).

وعندما اكتشفت الطالبة اليسارية شانتال، المداومة على متابعة مقابلات جورج مارشيه، زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان رئيس جامعة بوردو 3 روجيرت

اسكاربيت عضوا فيه، في قاعات التلفزيون في القرية 5، أن اليمن الجنوبي ديموقراطي وشعبي، نصحتنا أن نحضر ما يثبت أننا كنا في بلادنا مدرسين، وذلك لنستطيع أن نتحصل على ضعف مبلغ المنحة الشهرية التي يدفعها لنا الكروس شهريا. وفعلا طلبت من أخي سالم الذي كان حينئذ مدرسا في سيئون، أن يسعفني بالورقة التي استلمتها منه بالبريد المسجل في ظرف شهرين. وتحصل زميلي عقيل وعبد الله قائد على أوراق مشابهة. وتضاعفت منحتنا الشهرية.

(16)

رحلات الكروس

من أهم الأنشطة التي يتولاها مركز الخدمات الطلابية الجامعية (الكروس) في بوردو - وفي مدن فرنسا الأخرى- تنظيم رحلات شهرية للطلبة والمدرسين إلى المواقع السياحية والأثرية التي تقع في محيط المركز. وعلى الراغبين في المشاركة فيها دفع جزء من تكاليف الرحلة. وهناك خصم كبير للطلبة الذين يتقنون الغناء والتنكيت في حافلة السفر، أو الحاصلين على منحة من الحكومة الفرنسية.

ومن أبرز المواقع التي زرتها في إطار تلك الرحلات خلال دراستي في جامعة بوردو3: قصر دي لابرد، وشاطئ أركاشون، وقصر ميشيل دي مونتيني، وبلدة كاركسون، وإقليم الباسك. لكن أول رحلة نظمها لنا الكروس في مطلع شهر أكتوبر 1975، كانت للهوتيل دي فيل، مقر عمدة بوردو. وفيه رحبوا بنا ترحيبا حارا، لكنهم منعونا

من إدخال آلات التصوير، وكانت لدي كيمرا زينت Zent روسية، كنت قد اشتريتها في سيئون من المصور المرحوم صالح هادي مطبق. واستقبلنا العمدة الديقولي جاك شابان ديلماس، الذي كان رئيسا للوزراء من 20 يونيو 1969 إلى 5 يوليو 1972، وظل يشغل مقعد عمدة بوردو من عام 1947 إلى عام 1995، وكان قد تقدم للانتخابات الرئاسية سنة 1974 بعد وفاة جورج بومبيدو، الذي كان رئيسا لحكومته، لكن فاليري جيسكار ديستان هزمه ببساطة وفي الدور الأول. وعند مشاهدتي للعمدة وجدت فيه شبها كبيرا للكونت دي كورليوني، بطل (فيلم العراب1972)، لكن عندما ألقى شابان دلماس كلمته صدمني بصوته الأنثوي الناعم الذي يختلف تماما عن صوت دي كورليوني الخشن. ولا أدري لماذا ربطت بين صوت العمدة وهزيمة فاليري جيسكار ديستان له بسهولة.

وبما أنه كان بيننا عددا كبيرا من الطلبة الذين التحقوا بمعهد الدراسات الإعلامية، الذي أسسه روبيرت اسكاربيت سنة 1974في جامعة بوردو، فقد أخذتنا حافلة، بعد خروجنا من دار العمدة، إلى مبنى مؤسسة

صحيفة (سود ويست Le Sud Ouest)، الصحيفة الرسمية لمنطقة الأكيتين، وفيه طفنا بمختلف الأقسام. وفي قسم الطباعة أعطوا لكل منا ماكيت لإحدى صفحات عدد اليوم الذي زرنا الصحيفة فيه.

وفي الشهر نفسه نظم لنا الكروس زيارة لقصر لابرد، -. Château de La Brède الواقع في إحدى ضواحي بوردو، ويتبع عائلة الفيلسوف شارل دي مونتسكيو، الذي يعد أحد أبرز فلاسفة عصر التنوير، وأول من نادى بتطبيق نظام الفصل بين السلطات. ومن المعلوم أن المقولات التي ضمنها كتابه (روح القوانين)، قد وظفت في صياغة دستور الولايات المتحدة الأمريكية، ووثيقة إعلان حقوق الإنسان، ودستور فرنسا بعد إسقاط الملكية سنة 1789، وفي كثير من دساتير الدول الديموقراطية والليبرالية. كما انتقد مونتسكيو التعصب الديني المسيحي وبعض العادات الفرنسية في كتابه الساخر (الرسائل الفارسية)، التي تدرّس نماذج منها في كتب تعليم اللغة الفرنسية للأجانب.

وفي مطلع شهر ديسمبر من عام 1975، نظمت لنا رحلة لزيارة قصر الأديب ميشيل دي مونتيني (1533-1592)،

الذي أضيف اسمه لاسم جامعة بوردو 3، فأصبحت تسمى جامعة بوردو-مونتيني منذ سنة 1990. وشاهدنا البرج الذي شيده مونتيني بالقرب من القصر، وجعله مكتبة له يقضي فيها وقتا أطول من الوقت الذي يمضيه مع عائلته والناس، على الرغم من أنه ظلّ عمدةً لبوردو خلال فترة طويلة. وفي سنة 1978، أجبرت على دراسة كتابه (المقالات) أو) المحاولات(Les Essais ، وذلك في إطار تحضيري لشهادة الأدب الفرنسي، التي كانت مكرسة تلك السنة لدراسة أشكال كتابة الذات، مع (اعترافات) روسو، و(تأملات) هوقو، و(مذكرات من خلف القبر) لشاتوبريان، و(الكلمات) لجان بول سارتر. ومن المعلوم أن دارسي الصحافة يعدون (مقالات/محاولات) ميشيل مونتيني من النماذج المبكرة لفن المقالة الصحفية في العالم.

ومن المناطق التي زرتها بفضل برنامج الكروس: بلدة أركاشون الواقعة غربي بوردو، والتي تعد منتجعا سياحيا شهيرا يطل من الغرب على ساحل المحيط الأطلسي، وتحيط به غابات واسعة من جهة الشرق. وتتميز شواطئ أركاشون الرملية بصفاء مياهها. وكان على من يريد

الذهاب إلى الشاطئ أن يتسلق (أكمة بيلا) الرملية العالية، لهذا عندما ذهبنا إلى هناك فضل عدد كبير من المشاركين الاكتفاء بالتيهان وسط غابة الـ (les pins) المجاورة على قفز ذلك السوم الرملي العالي .

وفي نهاية الفصل الثاني من العام 1976/1975، نظم لنا كروس بوردو رحلة تاريخية (سبت وأحد) إلى إقليم الباسك الذي يقع في أقصى الجنوب الغربي من فرنسا، بمحاذاة المحيط الأطلسي وإسبانيا. وقضينا اليوم الأول والليل في بايون عاصمة الإقليم، وهي مدينة داخلية يمزج عمران بيوتها بين الحجر والخشب. وكان معظم السكان المحليين فيها لا يخفون حينها كرههم للحكومة الفرنسية المركزية ويطالبون بالانفصال، مثل الباسكيين الإسبان. وقضينا جزءا من الليل في اللعب بالكرات المعدنية الصغيرة(Les boules) ، مع بعض هؤلاء الانفصاليين في ساحة النزل الذي بتنا فيه .

وفي اليوم الثاني توجهنا إلى شاطئ مدينة بياريتس المزدحم بالمصطافين والسياح، وتسبحنا فيه ساعات طويلة، وكدنا أن نفقد إحدى بنات بوردو التي أصرت على التوغل في مياه الأطلسي على الرغم من عدم إتقانها

للسباحة. ويمكن ربط وجود عدد كبير من الطلبة والطالبات الباسك في جامعة بوردو ومطاعمها في تلك الفترة بغياب جامعة محلية خاصة بالإقليم.

وفي إحدى الرحلات التي نظمها الكروس تلك السنة، زرنا قلاع بلدة كاركاسون الواقعة شرقي مدينة تولوز، وتعود تلك القلاع التي تقع داخل الجزء القديم والمسور من المدينة، إلى القرون الوسطى. وقد أكد لنا أساتذة التاريخ في جامعة بورد و3، الذين شاركونا في الرحلة، أن المسلمين دخلوا المدينة سنة 703م بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي، وأطلقوا عليها اسم قرقشونة، وظلت تحت حكمهم حتى سنة 759 م.

(17)

صيف 1976

لم تتضمن المنحة التي تحصلت عليها من الحكومة الفرنسية صرف تذكرة سفر لزيارة الأهل في سيئون سنويا، بل كل سنتين. لذلك كنت مضطرا أن أقضي صيف سنة 1976 في بوردو، لاسيما أنني كنت بحاجة لدراسة بعض المواد في قسم اللغة الفرنسية للأجانب في الجامعة. وظل معي كذلك الزميلان عقيل السقاف وعبد الله قائد. وفي منتصف شهر يوليو فوجئنا بقدوم أربعة من طلبة الدراسات العليا من جامعة صنعاء لقضاء دورة لغوية إنعاشية قصيرة في بوردة، بعد أن أكملوا سنة دراسة اللغة في فيشي أو بيزانسون؛ وهم عبد الرحمن المنيفي، وعبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل العمراني، وفضل أبو غانم، وقايد نعمان الشرجبي. وقد سكن المنيفي والعمراني في غرف في القرية الجامعية الثالثة، وفضل

قايد الشرجبي السكن عند عائلة فرنسية في أطراف بوردو، أما فضل أبو غانم فقد منحه الكروس شقة في مجمع سكني يقع في قرادنيون، غربي المدينة الجامعية، إذ أنه اصطحب معه جزءا من عائلته، بينهم والدته التي كانت تذهب للمجمع التجاري المجاور في لباسها الصنعاني التقليدي. وكان شقته في الدور الأخير (الرابع والعشرين) من العمارة التي سكن فيها. وفي إحدى الجمع دعانا للغداء فيها، ويومها ذقت لأول مرة في حياتي السلتة والسحاوق بالحلبة.

وبما أن معظم المطاعم الجامعية كانت تغلق أبوابها خلال شهري الصيف، فقد كنا كثيرا ما نجتمع ونطبخ معا، خصوصا في المساء، وغالبا في غرفة عبد الرحمن العمراني. وكانت الاستعداد للوجبة يبدأ في مول (كازينو-جييان)، في المجمع التجاري القريب من عمارة فضل أبو غانم. وكان المنيفي يصر على أن تبدأ المراسيم، الساعة الخامسة مساءً، وسط أشجار الصنوبر في الغابة التي تفصل قرادينيون عن بيساك. وكانت مراسيم العشاء تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل. وبما أنني لم أكن محبا للموضوعات السياسية التي يناقشونها،

يبادر العمراني بإلهائي بديوان شعر عربي، كيلا ألخبط سهرتهم.

وسلمني كل من فضل أبو غانم وقايد الشرجبي، بعد وصولهما إلى بوردو، ورقة فلوسكاب، ضمنها كل منهما النص العربي لمشروع بحث المتريز الذي طلبه منهما أستاذ علم الاجتماع الفرنسي. وطلبا مني أن أترجم مشروعيهما إلى اللغة الفرنسية. ولم تكن العملية صعبة، لكني اندهشت حينما تبين لي أن الأستاذ الداهية طلب من الاثنين أن يكرسا رسالتيهما لنيل شهادة المتريز في الموضوع نفسه: التركيبة الاجتماعية التقليدية في اليمن. وفعلا حضر الزميلان المتريز في باريس مع ذلك الأستاذ، لكنهما فضلا استكمال دراساتهما في القاهرة، وحول الموضوع نفسه. ونشر قايد الشرجبي نتائج دراساته العليا في كتابه: (الشرائح الاجتماعية التقليدية في اليمن)، ونشر فضل أبو غانم كتابا بعنوان (البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير). وكذلك الحال بالنسبة لخريج بغداد عبد الرحمن العمراني، الذي حضر المتريز في باريس، فهو كذلك أكمل دراسات الدكتوراه في القاهرة، ونشر، الله يرحمه، ديوان شعر

عنونه (غريب من اليمن بين بغداد وباريس). وعبد الرحمن المنيفي هو الوحيد، من بين تلك المجموعة الصنعانية، الذي أكمل الدكتوراه في فرنسا.

وحينما نظم كروس بوردو رحلة إلى أركاشون في مطلع أغسطس 1976، كان العمراني نجمها، وكان يتنافس مع الآنسة لكادو، موظفة الكروس، على ميكرفون الحافلة. ويومها ارتجل قصيدة عربية جميلة، تغزل فيها بموظفة الكروس، وكان المنيفي يوقفه بين الحين والآخر، قائلا، "يا عمشوش ترجم."!

***

وفي إحدى ليالي النصف الثاني من شهر يوليو من سنة 1975، دخل غرفتي الزميل عقيل السقاف وجلس بقربي، وقال لي "الحمد لله مسعود، أنت الآن كبير، ما شاء الله عليك، وما حد يبقى لحد". وهزتني الكلمات الأخيرة، وسارعت قائلا: "إش فيه؟"، فقال "أبوك .. الحمد لله". فهمت ما يعنيه، وغطيت وجهي بيدي، وأجشهت بالبكاء. وبعد أن تركني عقيل أهدأ قليلا أخرج من جيبه ظرفا فيه رسالة بعثها لي أخي سالم بعنوانه، وداخلها صورة

للوالد، كتب أنها التقطت قبيل ساعات من وفاته يوم الجمعة 16 يوليو 1976 .

وفي صباح اليوم التالي، رغم تعبي بسبب عدم النوم تلك الليلة، فضلت مغادرة الغرفة والذهاب للدراسة. وفي القسم كان عقيل السقاف قد أشعر الإدارة بخبر الوفاة، وواساني المدير والمدرسون وقدموا لي العزاء في والدي.

***

قبل نهاية شهر أغسطس 1976، توقفت الدراسة الصيفية في قسم تعليم اللغة الفرنسية للأجانب، وكنت وعبد الله قايد قد سجلنا، لدى الكروس، في قائمة الراغبين في قطف العنب. وفي مطلع الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ذهبنا إلى بلدة سانت إميليون، القريبة من قصر لابريد، للعمل في إحدى أشهر مزارع العنب، وتم تسكيننا مع نحو عشرين عاملا وعاملة، معظمهم فرنسيون ومتدربون على المهنة. وكنا نبدأ نهارنا بالفطور الجماعي، ثم نتوجه للحقول، وكان رب العمل يحرص على أن يضع كل عامل متدرب أمام عامل محترف، وذلك لإجبار المتدرب على اللحاق به وعدم التأخر. وكان نجح عبد الله قايد في التحدي وبز المحترف. أما أنا فقد كنت أتأخر كثيرا،

ربما لأن الفلاحة، التي كانت في الجهة الثانية من الكروم، ذات خبرة طويلة في العمل، أو أنها كانت تتعاطي نوعا من المنشطات. لهذا لم أصمد في العمل إلا أسبوعين، وعدت إلى القرية5، ولحقني عبد الله قائد في نهاية الأسبوع الثالث. وفي منتصف شهر سبتمبر فاجأنا الزميل عقيل السقاف بخبر موافقة الحكومة الفرنسية على نقل مكان دراسته إلى مدينة نيس التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، بالقرب من إيطاليا.

(18)

برفقة صديقي فيريو

بعد عودتي من تجربة قطف العنب في بلدة سانت إميليون، شرعت في متابعة إجراءات التسجيل في جامعة بوردو. وكما سبق إن ذكرت، كنت أنوي إكمال الوحدات الدراسية الخاصة بدبلوم اللغة الفرنسية التجارية الذي تمنحه جامعة بوردو، قبل الالتحاق بالمستوى الأول من برنامج دبلوم الدراسات الجامعية العامة Diplôme d'études universitaires générales) الـ DEUG) في الآداب الحديثة، الذي كان يعادل Associate degree في الولايات المتحدة وكندا، والذي أصبح المكون الأول من الدراسات الجامعية في فرنسا منذ أن قام الوزير جوزيف فونتانيه بتغيير نظام التعليم الجامعي في فرنسا سنة 1973. وأكدت لي إدارة التسجيل أنه لا يمكنني تحضير دبلومين في الوقت نفسه. لذلك أجلت التسجيل في

(DEUG)للعام التالي، لا سيما أن صديقي البرتغالي بيرفيريو بينيرو (فيريو) اتخذ القرار نفسه.

وقرر فيريو كذلك أن ينتقل من شارع بلفيل في وسط المدينة والاستقرار في بيساك بالقرب من الجامعة. وبما أنه لم يستطع الحصول على غرفة في المدينة الجامعية، قرر أن يؤجر غرفة لدى إحدى العائلات التي شيدت لها بيوتا بالقرب من المدينة الجامعية، في بيساك. وبدأنا بالمرور عند التركي صاحب مكتبة (Mon Livre) ، الذي كان قد وضع إعلان في المطعم الجامعي 3 يؤكد فيه أن لديه غرفتين للإيجار. لكنه أخبرنا أن الغرفتين أصبحتا مؤجرتين. لهذا توغلنا في المنطقة التي خلف المكتبة، وكانت معظم بيوتها عبارة عن فلل متواضعة جدا، حول كل منها بضعة مترات من الأرض المزروعة ببعض أصناف الخضروات والفواكه، وسياج من الخشب. وتوقفنا عند واحدة من تلك الفلل، وضغطنا على الجرس، وفتحت الباب أمرأه تجاوزت الخمسين من العمر، وعندما شاهدتنا قالت: "آه، أتيتم لتنظيف الحديقة؟"، وعندما قلت لها بصوت متردد (لا.. أتينا لـ..."، شدّ فيريو ذراعي وقال لي: "اسكت أنت" ، وقال للسيدة الفرنسية، "نعم نعم،

جئنا لننجز العمل الذي لديك، كم ستدفعين لنا مقابل تنظيف حديقتك؟". ولم نختلف مع المرأة، وشمرنا عن سواعدنا وشرعنا في إزالة عيدان شجيرات الطماطم والباميا وبعض الأزهار اليابسة، ووضعناها في أكياس بلاستيكية كبيرة بالقرب من صناديق القمامة في الشارع. وبعد أن سلمتنا السيدة جاكلين مونيه أجرتنا، سألها فيريو إن كان لديها غرفة للإيجار. وبعد أن سألته عن مهنته، طلبت منا الانتظار ودخلت الفلة، وعادت بعد لحظات بصحبة رجل يبدو أنه قد تجاوز الخامسة والستين، ومن الواضح أنه زوجها، وكان قصير القامة مرتديا بيجاما صوفيه رمادية، وقبعة إيرلندية مسطحة. وبعد أن حيانا وجه لفيريو بعض الأسئلة عن أهله ومصدر دخله. وبعد الإجابة وافق أن يؤجر لفيريو الغرفة الخلفية بـ 150 فرنكا، بشرط أن يتم ذلك عبر مكتب عقاري في بيساك. وعلى فيريو أن يدفع أتعاب المكتب. وهكذا عثر صديقي فيريو، الذي أصبح سنة 1985 قنصل البرتغال في مارسيليا، على غرفة قريبة من الجامعة وبإيجار معقول جدا.

**

في اليوم التالي ذهبت إلى المركز الصحي كي أستخرج شهادة اللياقة التي ينبغي أن أسلمها لقسم التسجيل بالجامعة. وكان علي أن أخضع لخمسة فحوصات لاستخراج الشهادة، وحينما وصلت عند الممرضة المختصة بفحص الضغط ونبضات القلب، وكانت (pied noir)، أي من الفرنسيين العائدين من الجزائر، قالت: "أوه أنت رياضي؟"، فاستغربت قليلا، وسألتها: "ربما، لماذا؟"، فردت بالفرنسية: "نبضات قلبك قليلة". وعندما شكت في عدم استيعابي لاستنتاجها أضافت بالعربية: "قلبك يمشي دلا دلا، تمام". ولمدة ثلاثة أيام من إجراء تلك الفحوصات استمريت أحسب نبضات قلبي طوال الليل والنهار، إلى أن اقتنعت أنها لا تتعدى أبدا 58 نبضة في الدقيقة، واقتنعت أنني فعلا رياضي، وربطت ذلك بكثرة تسلقي للنخيل في المزرعة في سيئون، واعتمادي على الدراجة الهوائية التي اشتريتها من زميلي جوزيف للذهاب إلى وسط المدينة، مثل عدد كبير من سكان بيساك وبوردو الذي يتنقلون بالدراجات الهوائية إلى يومنا هذا. لكنني اليوم تركت جانبا استنتاج تلك الممرضة، وذلك بعد أن اكتشفت أن قلب أختي الصغرى وقلب بنتي الكبرى "يمشيان كذلك دلا دلا."

***

وفي ذلك الفصل الأول من العام الدراسي 1976/1977، ترددت كذلك على قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة بوردو3، الذي لم يتم نقله بعد من مبنى الكلية في شارع باستور وسط بوردو. وتعرفت فيه على بعض المدرسين المغربيين والتونسيين، وعدد من الطلبة الفرنسيين، الذين اختاروا اللغة العربية تخصصا ثانيا إلى جانب اللغة الفرنسية، في برنامج (DEUG) الآداب الحديثة، ويحرصون على ارتياد المطعم التونسي في ساحة النصر، لممارسة اللغة العربية مع المغاربة والجيبوتيين. ومقابل تدريبهم لي على كتابة الـ (la dissertation et le commentaire compose)، وقراءة رواية (الأب قوريو) لبلزاك، ساعدتهم على ترجمة صفحات كثيرة من رواية (الزيني بركات)، التي نشرها جمال الغيطاني سنة 1972، وظلت ضمن مقررات القسم سنوات طويلة.

(19)

سنة (دوعنية)

كما سبق إن ذكرت، كرست معظم العام الدراسي 1977/1976 لتحضير دبلوم اللغة الفرنسية التجارية. وعلى المستوى الدراسي لم تحدث أية مفاجآت؛ فدراسة التجارة لن تكون صعبة لحضرمي بأي لغة كانت. لكن الجانب التطبيقي كان محدودا. لهذا، في الفصل الدراسي الثاني، وجهنا الأساتذة للذهاب إلى مدرسة بوردو للتجارة، التي تقع على بعد خمسمئة متر من مبنى كلية الآداب. وفيها اكتشفت أنه لن تكون لي أية علاقة بالتجارة والتجار في المستقبل. لكني استفدت كثيرا من ذهابي لتلك المدرسة للارتقاء بمهارات التعبير الكتابي والكلامي باللغة الفرنسية، وأتقنت كذلك استخدام الآلة الطابعة التي تدربت عليها بشكل جيد. وعلى سبيل التدريب قمت بكتابة رسالة موجهة من مديرة الكروس لزميلي (المسيو قايد)، تطلب فيها منه الحضور لاستلام

مبلغ مالي يقدر بألف فرنك، فارق مستحقاته للعام السابق. واستلم (قايد) الرسالة بواسطة البريد، وذهب للكروس دون أن يشعرني، وهناك استغربت، المديرة، الآنسة مارتان، وأخبرته أن أحد أصدقائه دبّر له (مقلبا سيئا)، وسألته أن كان يشك في هوية الفاعل. وبالطبع لم يستطع (المسيو قايد) تخمين هوية مدبر المقلب. وكان المسيو عمشوش تحت مستوى الشبهات وكتابة رسالة من هذا النوع. وإلى اليوم لم يكتشف زميلي عبد الله محمد قايد، الذي عُيّن، بعد عودته إلى عدن، مترجما في إدارة السوق الحرة، هوية الشخص الذي حرر، ذات يوم، رسالة استدعائه إلى الكروس في مطلع سنة 1977.

وخلال ذلك العام حضرت، إضافة إلى اليومات الأسبوعية في القرية 5، كثيرا من الفعاليات التي كانت تنظم في الجامعة، ومنها الأمسيات الغنائية التي ينظمها الطلبة العرب، وتحديدا المغاربة، تحت مسمى يوم التضامن مع القضية الفلسطينية. وقد أعجبت بشكل خاص ببعض الأغاني المغربية، مثل (الله يا مولانا)، التي دأب الطلبة المغاربة على افتتاح واختتام سهراتهم بها.

وفي مدرسة التجارة تعرفت على بعض العراقيين والسعوديين الذين كانوا يتدربون أو يدرسون بها، ويتواصلون في الغالب مع الآخرين باللغة الإنجليزية. وكان بعضهم يسكنون في القرية5، وكل ليلة خميس يتجمعون عند واحد منهم، ويحضرون الطعام في المطبخ الجماعي، ويحيون سهرة (حناني طناني) إلى الصباح. وبفضل كرمهم العربي تتحمل المنظفات في الصباح تنظيف مخلفات السهرة بصمت.

وفي نهاية العام الدراسي 1977/1976، تحصلت أنا زميلي فيريو على دبلوم اللغة الفرنسية التجارية، واستلمنا شهاداتنا في حفل رسمي، حضره رئيس الجامعة روبيرت اسكاربيت. وفي نهاية شهر يونيو 1977 غادرت بوردو إلى باريس، ومنها إلى عدن، ومنها إلى سيئون لقضاء الإجازة الصيفية هناك مع الأهل.

(20)

البدء في دراسات الـ(Deug)

بعد أن قضيت النصف الأول من شهر رمضان سنة 1397هـ مع الوالدة والأخوان والأخوات والأقارب، وشاركت سكان القرن في ختم النص، غادرت سيئون إلى عدن. وهناك حجزت إلى باريس عبر بيروت، على خطوط طيران الشرق الأوسط .(MEA) وكانت الرحلة مساء يوم الجمعة 9 سبتمبر 1977، وقد وصلت مطار (Orly Sud) في باريس فجر يوم السبت 10 سبتمبر. وتوجهت إلى مبنى سفارتنا في 25 شارع جورج بيزه. وهناك وجدت عددا من الطلبة وبعض أفراد طاقم السفارة يتأهبون للذهاب إلى ضاحية كورنيف للمشاركة في عيد صحيفة (الاومانتي L'Humanite)، التي كانت حينذاك لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي. أما العيد فكان أضخم احتفال سياسي في فرنسا، وربما في أوربا كلها، حيث يتجمع فيه الشباب وقادة الأحزاب والقوى اليسارية والتقدمية، وحركات التحرّر الوطني من مختلف أقطار العالم. وتشارك فيه

كذلك هيئات نقابية وثقافية وأدبية وموسيقية ومسرحية، وتقام معارض كتب وفنون تشكيلية وألعاب أطفال، ومنصات لبيع مختلف أصناف الوجبات الشعبية من فرنسا ومن خارجها. وكانت جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية من أبرز المدعوين للمشاركة في عيد الأوماني. وهناك اعتمادات كبيرة ترصد لتلك المشاركة. وفي بعض السنوات يأتي من عدن ممثل عن الحزب الاشتراكي خصيصا للمشاركة في العيد.

المهم، وضعت حقيبتي الصغيرة في شقة محسن عبيد العمري، وذهبت معه في سيارة السفارة إلى مكان الاحتفال، ومعنا جميع مستلزمات تحضير السمبوسة والباقية (الفلافل)، والخمير. وتوجه غالبية الزملاء إلى مكان العيد بالمترو (قطار الأنفاق). وهناك التقيت بعدد كبير من الزملاء، بينهم أحمد الصياد والمنيفي والعمراني وحبيب سروري والمهندس المدني نصيب عبد الرحمن وابوبكر زميلان. وشارك جميع الرفاق في (تعطيف) السمبوسة وقلي الباقية والخمير. وحظيت منصتنا بإقبال كبير من مرتادي كورنيف ذلك العام. وبين الحين والآخر كنت أهرب للتسكع في شوارع ساحة العيد

المغطاة بمياه المطر، والتي كانت تحمل أسماء كبار المناضلين الثوريين مثل: نلسون مانديلا وروزا لكسمبورغ ودولوريس إيباروري وسلفادور أليندي وياسر عرفات. وتضامنا مع يساريي العالم اشتريت من منصة فلسطين غترة ولفيتها حول رقبتي اتقاءً من البرد، ومن منصة كوبا اشتريت قبعة كاستروية وقيت بها رأسي من المطر.

وفي مساء يوم الأحد 11 سبتمبر 1977، عرّجت على مبنى السفارة وأخذت حقيبتي، وفي محطة أوسترليتز ركبت القطار السريع إلى المحروسة بوردو. وفي تمام الساعة الثامنة من صباح الاثنين، 12 سبتمبر، آخر أيام شهر رمضان، كنت في مكتب إدارة التسجيل لكلية الآداب، وفيه اكتشفت أنهم لم يعفوني إلا من استنهاج المادتين الاختياريتين ومادة اللغويات العامة، وعليّ أن أدرس تسع وحدات دراسية (unites de valeur) خلال عامين لأحصل على (دبلوم الدراسات الجامعية العامة في الآدب الحديثة فرنسي -عربي لاتيني).

لقد كان العام الدراسي 1977/1978 أصعب الأعوام في مسار دراساتي في فرنسا؛ فقد كان عليّ أن أدرس وحدة اللغة العربية في قسم اللغة العربية بشارع باستور وسط

المدينة، ووحدة الأدب المقارن التي تضم نصوصا فرنسية وإيطالية وإنجليزية، إما مؤلفة باللغة الفرنسية، مثل مسرحيات صامويل بيكيت وأوجين يونسكو، أو مترجمة مثل نصوص فيرجينيا وولف وبريشت وإيتالو كالفينو، ووحدة الأدب الفرنسي1، وفيها كان هناك البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست، ووحدة اللغة اللاتينية والثقافات القديمة، وفيها ينبغي تصريف أفعال اللغة اللاتينية وأسمائها، وقراءة نصوص باللاتينية، ودراسة الإنياذة والإلياذة والأوديسة مترجمة للفرنسية .

وكان النظام التعليمي في فرنسا في العلوم الإنسانية في غاية الصعوبة والفعالية، فقد كان تدريس الوحدات الدراسية يتوزع بين كثير من ساعات (الأعمال الموجهة les travaux diriges)، وقليل من المحاضرات التقديمية النظرية يلقيها علينا، عادة في المدرج 700، أساتذة مسنون وذو خبرة طويلة في إلقاء المحاضرات بطريقة شعرية وجذابة، تجعلنا نتسمر في مقاعدنا ساعات طويلة، على الرغم من رائحة النبيذ التي تفوح منهم، ولا تؤثر مطلقا في انسيابية إلقائهم .

ويتولى مسئولية تقييمنا في مختلف الوحدات الدراسية مدرسو الأعمال الموجهة، التي نوزع خلالها على مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد الطلبة في كل منها عن 20 طالبا. وكان الطلبة، الذين سبقونا في العذاب، قد نصحونا أن نختار المدرسين (الشريرين)، لنتجنبهم يوم الامتحان الشفهي، إذ لا يحق للمدرس تقييم طلبة مجموعته. وكان الامتحان النهائي يتكون من جزء تحريري، وجزء شفهي لا يمكنك التقدم له إلا إذا نجحت فيه الجزء التحريري .

ويرصد جزء من الدرجات لأعمال الفصل التي تتكون من المثابرة والمشاركة وكتابة ما لا يقل عن ثلاثة واجبات، يسمونها (مقالة أو كتابة نقدية مركبة dissertation) (ou commentaire compose، يمارسها الطلبة الفرنسيون وهم في الثانوية العامة. وهذا ما دفعني إلى التمرن عليها العام السابق. والراسب في أعمال الفصل يعلق المادة.

بعد عودتي إلى بوردو تمّ وضعي في المبنى الذي سكنته العام السابق (batiment A) من القرية5، مع تغيير الطابق فقط، وسكن معي في المبنى نفسه الزميل عبد الله قايد. وظل فيريو في غرفته عند مسيو ومدام مونيه.

لكن بالنسبة للدراسة، فقد اختار أن يلتحق بكلية الحقوق، وذلك نزولا عند رغبة أبيه الذي كان يفضل أن يصبح ابنه كاردينال، إذا لن يستطيع أن يصبح الـ(بابا)

(21)

سنة أولى (DEUG)

ذكرت أن العام الدراسي 1978/1977 كان أصعب الأعوام في مسار دراساتي في فرنسا. وعليّ كذلك أن أؤكد أنه كان، إجمالا، مثمرا جدا، إذ استطعت أن أكتسب خلاله كثيرا من المهارات والمعارف والمناهج التي لا أزال أطبقها اليوم، وأحاول أن أنقلها إلى طلبتي في مختلف المستويات. وعلى الرغم من أنني كنت من أكثر رواد المكتبات العامة في الكلية والجامعة ومدينة بوردو، فقد اضطررت إلى إنفاق نحو 50٪ من المنحة في شراء الكتب - المصادر والمراجع- التي كان الأساتذة، الذين يتابعون آخر الإصدارات النقدية في فرنسا، يجبروننا على قراءتها. هكذا اشتريت كتب رولان بارت وتزيفتان تودوروف وجيرار جينيت، وفيليب لوجون .

ففي إطار وحدة (الأدب الفرنسي1) مثلا، كان عليّ أن أقرأ الجزء السابع من رواية (البحث عن الزمن المفقود)، الزمن

المستعاد. ولم تكمن صعوبة تلك القراءة في تعقيد الجملة البروستية، وما فيها من رائحة كعكة جدته، بل في ضرورة التأكد من صحة المقولات التي ضمنها جيرار جينيت عن هذه الرواية في كتابه) بنية الحكاية (Figures III). وبسبب تشبعي بتلك المقولات قمت بتطبيقها في قراءة قمت بها لرواية (يموتون غرباء) لمحمد عبد الولي، ونشرتها سنة 1982مجلة (الثقافة الجديدة)، أي قبل أن تنشر سيزا قاسم كتابها (بناء الرواية) سنة 1984. وقد اعتقد كثير من قراء (الثقافة الجديدة) حينذاك أن كاتب الدراسة كان جزائريا.

وبالمقابل، لم تواجهني صعوبات كثيرة في دراسة وحدة (الحضارة اليونانية واللاتينية واللغة اللاتينية)، التي كان الطلبة الفرنسيون أبلد مني بكثير فيها، فبالنسبة لي كان تصريف الأفعال اللاتينية أسهل بكثير من تصريف الأفعال الفرنسية. وكذلك الحال بالنسبة لوحدة اللغة الفرنسية القديمة (FD) ، التي كان معظمها مكرسا لتحليل قصة (تريستان وايزولت). وفي هذه المادة كتبت مقالة أدبية (Dissertation) نالت إعجاب معظم مدرسي مجموعات الأعمال الموجهة،

وتحصلت بفضلها على درجة جيدة دفعت أحد زملائي الفرنسيين المكبودين إلى كتابة(العربي القذر sale arabe) أمام درجتي حينما وضع الأستاذ النتيجة في لوحة الإعلانات.

وبالنسبة لوحدة اللغة العربية، التي درستها في شارع باستور وسط بوردو، فقد كانت مقسمة إلى قسمين، قسم للغة والترجمة، قام بتدريسه لنا أستاذ تونسي، كان باستخدام كتاب سيلفستر دي ساسي (Grammaire arabe)، في نسخة تونسية تعود إلى سنة 1904. وقام كذلك بتدريبنا على الترجمة بين الفرنسية والعربية، بواسطة نصوص مختارة من رواية (الزيني بركات) لجمال الغيطاني. أما القسم الثاني من وحدة اللغة العربية فقد كان مكرسا لدراسة الأدب العربي الكلاسيكي، وقام بتدريسه لنا مدرس جزائري اسمه محمد الأزهر، وطلب منا قراءة كتاب أستاذه المستعرب الفرنسي اندريه ميكل (Géographie arabe et représentation du monde : la terre et l'étranger, Paris, 1975)، الذي يتضمن نصوصا طويلة من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ. ومن شدة إعجابي بأستاذي محمد الأزهر قمت بتوقيع عدد من

مقالتي التي نشرتها حينذاك باسم عمشوش الأزهر، منها دراستي حول رواية (يموتون غرباء). بل أنني أسميت ابني الأول الذي توفي سنة 2005، الأزهر. ولا أزال اليوم أدرّس كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ لطلبتي في برنامج الدكتوراه، تارة في إطار أدب الرحلة، وتارة في إطار أدب كتابة الذات.

وفي سنة ١٩٧٧ حاولت كتابة عدد من النصوص السردية الإبداعية باللغة العربية، أرسلت بعضها إلى صحيفة (14 أكتوبر) في عدن، لعل أبرزها، تهشم مظلتي. وقد بادر الشاعر الصحفي المثقف أحمد مفتاح عبد الرب، الذي كان حينها مشرفا على صفحة (بريد القراء) في الصحيفة، إلى نشر بعضها. وكانت موقعة بالحرفين م. ع.

(22)

صيف 1978 في إيطاليا

كان معظم زملائي في دبلوم الدراسات الجامعية العامة - آداب حديثة (DEUG) فرنسيين. وتصل نسبة الإناث بينهم إلى 50%. وكنت من بين الأجانب القليلين في البرنامج، إلى جانب طالب نيجيري، وطالب تونسي يذكرني دائما بالأديب الفرنسي أندريه جيد، وطالبة أفغانية لا تعرف القسَم إلا بعلي. وبالنسبة للمدرسين تتساوى نسبة الذكور ونسبة الاناث، لكن جميع الأساتذة المحاضرين كانوا ذكورا ومسنين، ومن النادر أن نحتك بهم عن قرب. وكانت العناصر النسائية من بين مدرسي مجموعات الدراسات الموجهة هي الأقرب للطلبة، وكانت تسعى إلى خلق الألفة بيننا من خلال تنظيم أنشطة لاصفية متنوعة، تتركز في الغالب في الذهاب لمسرح بوردو الكبير لمشاهدة المسرحيات الكلاسيكية، أو إلى المعارض الفنية التي تكثر في مدينة بوردو.

وفي الحقيقة كانت بوردو ولا تزال تشهد اهتماما كبيرا بالفعاليات الثقافية والفنية، التي تفاعلت معها كثيرا خلال سنوات دراستي فيها، إلى درجة أنني أصبحت أعجب مثلهم بجمال اللوحات الجدارية مثلما أعجب بجمال الكثبان الرملية في صحراء السبعتين في أطراف الربع الخالي. وبسبب ذلك قبلت العمل حارسا في المعرض الذي افتتحه البرتغالي فوستو زميل صديقي فيريو، مع زوجته الفرنسية وسط بوردو. بل أنني قبلت مقترح زميلي (البوردلي) الفرنسي جان فيبير، للقيام، في مطلع صيف 1978، بجولة في مدن إيطاليا لمشاهدة أكبر عدد ممكن من المتاحف. ومن أجل ذلك استخرجت بطاقة الطالب العالمية، واشتريت شيكات سفر قابلة للصرف في أي مكان من البنك الأمريكي.

وبعد أن كنا قد قررنا السفر بسيارة جان فيبير، البيجوت القديمة، اضطررنا في آخر لحظة السفر بالقطار. وعندما توقف القطار في جنوا، الواقعة في الحدود الإيطالية الفرنسية، دخل بعض رجال الأمن الإيطاليين وسألونا إن كان لدينا كميات تجارية من الكحول الفرنسي، وهو الشيء الوحيد الذي يحرصون على عدم تسربه إلى بلادهم

أكثر مما يحرص رجال الجمارك في معظم الأقطار الإسلامية على عدم تسربه إلى بلادهم. وبعد أن توقفنا ساعتين في بيزا للتأكد من ميلان برجها، واصلنا رحلتنا باتجاه (فيرانزيه أو فلورنسا Firenze)، التي عاش فيها دانتي وبترارك وليونارد دافنشي وماكيفل. ومكثنا فيها ثلاثة أيام جربنا خلالها الحياة في مخيم الشباب، فوق العشب. وزرنا عددا كبيرا من المتاحف، منها متحف الدومو والسانتا ماريا والأوفيس، ومعرض الأكاديمية الذي شاهدت فيه التمثال الذي نحته مايكل انج للنبي داوود. وفي فلورنسا كان النادل في المطعم يصر على استبدال الماء الذي أطلبه بالبيرة التي يشربها هو بنفسه، زاعما أنهم لا يقدمون الماء مطلقا في مطاعم المدينة.

ثم صعدنا باتجاه الشمال الشرقي، وتوقفنا 18 ساعة في مدينة بولونيا الصناعية، وأكتفينا بالتفرج عليها من قمة برج أسينيلي المائل. ثم اتجهنا شرقا صوب فينيسيا (أو البندقية)، ونزلنا فيها ببيت الشباب المجاني، والذي كان علي أن أدفن حياتي فيه وأستخدم الحمامات الجماعية من غير أبواب. وقضينا فيه خمس أيام، زرنا خلالها معظم المتاحف، منها متحف كورير، ومتحف قصر

دوجي، وقبة بلانيتاريو دي ميلانو الفلكية، ومكتبة مارسيانا. وبعد زيارتي لمتاحف البندقية وفلورنسا شعرت أنه بإمكاني التقدم لأي امتحان في تاريخ الفن الإيطالي .

وبعد انتهاء زيارتنا لفينيسيا عدنا باتجاه الجنوب، وكانت روما محطتنا الأخيرة. ونزلنا فيها بفندق بائس لكن سعره كان مناسبا جدا. ومن أهم المعالم التي زرناه في روما إضافة إلى الكابيتول، مدينة الفاتيكان التي قضينا في دهاليزها نهارا كاملا بدون أكل ولا ماء. ولم أكن قد نويت الصيام. وخلال تسكعي في ساحة سانت بيير لاحظت أن بعض المؤمنين يتصدقون للفقراء والمساكين- الذين كنت يومذاك في عدادهم- من خلال إسقاط - خلسة- بعض الأوراق النقدية على الأرض. وطبعا لا يلتقطها إلا المحتاج. والله أعلم .

وفي كل الأحوال، بدا لي أن معظم زوار الفاتيكان وساحة سانت بيير كانوا يأتون للسياحة، وليس للزيارة الدينية أو الحج، مثلما هو الحال بالنسبة لزيارتهم لضريح القديسة فاطمة، الذي يقع في بلدة فاطمة البرتغالية الأندلسية، والذي يحج إليه سنويا ملايين من المسيحيين الكاثوليكيين. وقد زرته لاحقا برفقة صديقي فيريو

وعائلته، وشاهدت هناك كيف يزحف المؤمنون زحفا على ركبهم نحو نصف كيلومتر ليصلوا إلى جوار ضريح القديسة فاطمة. وقد زحف إليه مثلهم البابا قبل أربع سنوات فقط، سنة 2017.

(23)

أعياد نهاية العام 1978 في باريس

في الظروف العادية، الفرنسيون ليسوا شرسين، ولا يشكلون مصدر خوف للعربي الذي يعيش بينهم، بل العكس هو الصحيح، فالفرنسيون هم الذين يخشون عادة شراسة العربي. ويبدو أن رواية (الغريب) لألبير كامو قد رسخت هذا الشعور لديهم. لهذا كنت لا أتردد في التنقل بين المدينة الجامعية في بيساك وتالانس ووسط المدينة بالدراجة الهوائية، أو حتى مشياً بعد منتصف الليل. وأخبرني صديقي البرتغالي أنه يشعر بالاطمئنان عندما نتنزه معا في شوارع المدينة في وقت متأخر من الليل. وحينها كنا لا نتعرض لأكثر من مساءلة رجال الشرطة (أين أوراقكم؟)، هذا إذا كانوا مجموعة، أما إذا كان شرطي بمفرده فهو لا يتجرأ أبدا على إيقافنا وطرح السؤال.

وربما هناك حوادث استثنائية بسيطة. مثلا، في نهاية الفصل الثاني من العام الدراسي 1978/1977، أثناء تناولي وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي، الذي يقع وسط المدينة، سرق أحد جيراني في طاولة الأكل،

شنطة أوراقي من جيب الأوفركوت حينما قمت لأطلب (لحقة) من المطبخ، وأخذ ما بها من فرنكات قليلة وخمس تذاكر مطعم، ورمى الشنطة في علبة البريد التي تقع في ساحة النصر. وبعد أن بلغت الشرطة بالحادث، استلمت اشعارا من إدارة البريد، تعلمني فيه بالعثور على شنطتي ضمن الرسائل المجمعة ذلك اليوم. ولم تتكرر الحادثة.

في مطلع العام الدراسي 1978/1979، سجلت في المستوى الثاني والأخير من دبلوم الدراسات الجامعية العامة -آداب حديثة. ومقارنة بالصعوبات التي واجهتني في العام السابق، كانت الدراسة في ذلك العام سلسة وجذابة. لم أواجه أي مشاكل تستحق الذكر. وكان من أهم المواد المركبة التي درستها (LM) :المكرسة لدراسة (أدب الأنا أو الذات في الأدب). وكان علينا أن ندرس في إطارها - كما سبق إن ذكرت- نصوصا لميشيل دي مونتيني وجان جاك روسو وشاتوبريان وفيكتو هوقو وجان بول سارتر. وقد واصلت الاهتمام بأدب الذات حينما أصبحت أستاذا في كلية الآداب بجامعة عدن. فحتى هذا العام الدراسي

2022/2021 كان أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم هو الموضوع الذي أخترته لطلبة الدكتوراه.

***

وبمناسبة أعياد نهاية العام الميلادي 1978، حالفني الحظ وبرز اسمي ضمن الطلبة الذين دعاهم الكنوز (CNOUS) لحضور حفل رأس السنة الميلادية 1979، في قمة برج موبارناس في باريس. وكنت قد تلقيت كذلك دعوة للمشاركة في مؤتمر اتحاد الطلبة اليمنيين، الذي عقد في باريس في عطلة نهاية العام 1978. ونظم المؤتمر في إحدى قاعات المدينة العالمية (La Cite Internationale)، وفيها تعرفت على كثير من الزملاء، من بينهم المهندس القنزل، والمهندس محمد العراشة الذي دعنا لشرب الشاي في السكن الذي كان يعيش فيه مع زوجته الفرنسية كلود العراشة، التي أصبحت فيما بعد مدرسة في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة عدن.

وفي ذلك المؤتمر ناقش المجتمعون ظاهرة تعثر عدد كبير من المبتعثين اليمنيين إلى الجامعات الفرنسية، لا سيما الذين جاءوا بعد الثانوية مباشرة، وأوصوا بوقف

ابتعاث أي طالب يمني بعد الثانوية العامة، والاكتفاء بابتعاث طلبة الدراسات العليا. ويبدو أن الحكومتين اليمنيتين قد تبنتا تلك التوصية. وفي الحقيقة، حتى طلبة الدراسات العليا عانوا كثيرا من نظام التعليم الجامعي الذي أقره فونتانيه سنة 1973، والذي قسم التعليم الجامعي والعالي في فرنسا إلى ثلاث دورات (Cycles)، دبلوم دراسات جامعية عامة سنتان، وسنة ثالثة ليسانس، وسنة رابعة للمتريز (وأضيفت إليها سنة خامسة للمتريز2)، ثم دراسات الدكتوراه الموزعة على سنة تمهيدية يسمونها (دبلوم الدراسات المعمقة) وسنتين على الأقل للأطروحة. والمشكلة أن الفرنسيين كانوا يلزمون الطالب العربي الذي يحمل البكالوريوس (أربع سنوات) من الأقطار العربية بتحضير رسالة المتريز، التي لا يعادلها العرب بالماجستير. وقد عانى العرب المغاربة كثيرا من اتباعهم لهذا النظام الفرنسي الذي تم إلغاؤه في فرنسا وأقطار المغرب العربي في مطلع هذا القرن، واستبدلوا المتريز1 والمتريز2 بالماستر (الماجستير).

(24)

سنة الليسانس

رسميا كانت منحتي تنتهي في نهاية العام الدراسي 1980/1979. وهو العام الذي حضرت خلاله الليسانس. وكانت سنة صعبة نوعا ما. فالليسانس يتكون من شهادتين مركبتين: (شهادة الأدب) الإجبارية(CL) ، وهي التي تعطي لليسانس صفة (الآداب الحديثة)، وتتضمن جزءا خاصا بالأدب الفرنسي، كان تلك السنة مكرسا لدراسة أدب الرحلة من خلال نصوص لجيرار دي نرفال (رحلة إلى الشرق)، و(مسار السفر من باريس إلى القدس) لشاتوبريان، وجزءا خاصا بالأدب المقارن درسنا إياه العجوز (المتأمرك) جان سيميون، الذي كان أحد أشهر أساتذة الأدب المقارن في فرنسا حينذاك، والذي قدم لنا براهين كثيرة تثبت تفوق إدجارد آلان بو على كل من تشيخوف وموباسان في فن القصة القصيرة، وأصرّ على الذهاب إلى باريس في 15 أبريل 1980 للمشاركة في تشييع جثمان الأديب الفيلسوف جان بول سارتر. وتتضمن الـ (CL)جزءا خاصا بالأدب العربي، الذي كان عليّ استنهاجه في قسم

اللغة العربية في شارع باستور. أما الشهادة الأخرى فكان علينا أن نختارها من بين سبع شهادات متنوعة، وتشكل التخصص المساعد أو الأصغر؛ وقد أخترت شهادة اللغويات (C1)، المكرّسة في الواقع لنظريات الاتصال وقراءة النصوص بوصفها خطابا وفق نظريات ما بعد البنيوية. وكان خطي قد تحسن كثيرا في تلك السنة، وخلت واجباتي من الأخطاء اللغوية، ونالت إعجاب الأساتذة، وتحديدا سيمون جون، الذي قبلَ الإشراف على رسالتي للمتريز.

كان عدد الطلاب في مستوى الليسانس قليلا، مقارنة بعددهم في مجموعات الدبلوم. ولا شك أنه قد جرّت غربلة واسعة للطلبة من خلال الامتحانات الصعبة، الهادفة إلى تطبيق سياسة الانتقائية المفرطة. ففي الواقع، كانت الجامعات الفرنسية وقتذاك تقبل أعدادا هائلة من الطلبة في المستوى الأولى، لكنها تضع امتحانات صعبة جدا في نهايته، كيلا ينتقل إلى المستوى الثاني إلا عدد محدود جدا من الطلبة. ويمكن أن تصل نسبة النجاح في العلوم الإنسانية إلى 35٪، لكنها لا

تتجاوز في الطب الـ 5٪. لذلك يمكن أن نسمي سنة أولى طب في فرنسا (سنة مفاضلة أو سنة تحضيرية)!

وقد تسبب تطبيق نظام الانتقائية المفرطة في السياسة التعليمية الفرنسية، التي كان من بين ضحيتها بعض الزملاء، احتجاجات كبيرة، إذ شهدت جميع المدن الجامعية مسيرات وإضرابات واستطاع اليسار الفرنسي أن يوظف موجة الاحتجاجات في الأوساط الطلابية والعمالية لصالحه، وتمكن الحزب الاشتراكي الفرنسي من الإطاحة بالقوليين الفرنسيين من البرلمان ورئاسة الجمهورية. ففي مايو 1981، شهدت جميع مدن فرنسا احتفالات كبيرة بانتصار فرانسوا ميتيران الذي أصبح رئيسا لفرنسا من تلك السنة إلى سنة 1995.

وفي سنة الليسانس، كان علينا أن نعمل ضمن فرق عمل صغيرة، في المكتبة. وكان هناك تباين كبير بين الطلبة، فمنهم الأدباء الموهوبون ومنهم أبناء برجوازيي بوردو، الذين كان همهم الوحيد إضافة شهادة في الآداب الحديثة، إلى سيرهم الذاتية، من قبيل (البرستيج أو البدانتيسم). وكنتُ من بين الطلبة الذين تحصلوا على الشهادين (CL C1) في دورة يونيو 1980، وكانت نتيجتي

في شهادة التخصص جيدة بعكس نتيجتي في شهادة اللغويات. وبفضل نجاحي في امتحانات الليسانس من الدور الأول، تحصلت على منحة لمدة سنة إضافية، أي إلى نهاية يونيو 1981، لأتمكن من تحضير المتريز: تمهيدي ورسالة معا.

وفي صيف 1980، أصر صديقي الفرنسي ميشيل لبوا على تدريبي على قيادة السيارة، وكنت أقود سيارته بسهولة من بوردو إلى شاطئ أركاشون صباح كل سبت، لكني لم أستطع أبدا قيادة السيارة في شوارع بوردو، لاسيما في الليل حينما يفقد معظم (البوردليين) أعصابهم، أما بسبب طول زمن التوقف عند الإشارات الحمراء، أو بسبب مبالغتهم في شرب النبيذ خلال وجبة العشاء.

(25)

سنة المتريز

في العام الدراسي 1980/1981، كان عليّ أن أحضّر شهادة المتريز. ومن أجل ذلك، استنهاج مادة مركبة تسمى (C1)، ويتدرب الطلبة من خلالها على مناهج إعداد البحوث المتينة والرسائل العلمية. وفي حين كان فريق من الأساتذة يصرّ على إجبارنا على استخدام مبادئ التحليل وفق خطوات ديكارت، كان هناك فريق آخر حداثي يحرص على تدريبنا على تحليل النصوص وفق مناهج الخطاب والسرد كما روّج لها بارت وجينيت وتودوروف وجاكبسون.

وبسب قلة عدد الطلبة في برامج المتريز بقسم الآداب الحديثة، كانت الكلية لا تتردد في مزج طلبة تلك البرامج مع المتقدمين لنيل درجة(الاقريقشان agregation)، وهي شهادة تؤهل للالتحاق بسلك التدريس الثانوي والجامعي في فرنسا، وترتكز على امتحانات المفاضلة. ومن حسن حظي أن الأستاذ ميشيل شميدت قبل أن تكون مشاركتي الشفهية والتحريرية في السيمينار

(حلقة النقاش) الذي يشرف عليه حول (رحلات السندباد في ترجمة أنتوان قالان لألف ليلة وليلة)، التي سأكرس لها أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه .

وكما ذكرت، قبلَ الأستاذ سيمون جون (Simon Jeune)، الذي كان في الخمسينيات أحد طلاب أستاذ الأدب المقارن جان ماري كاريه، وأسس قسم الأدب المقارن في جامعة نانسي قبل أن يستقر في بوردو سنة 1967، أن أكرس رسالة المتريز لدراسة (شخصية الخادمة في كتابات الروائي فوستاف فلوبير: مدام بوفاري وقلب متواضع). وسمح لي أن أمزج في رسالتي بين المناهج التقليدية لدراسة الشخصية الروائية، والمناهج الحديثة التي تتعامل مع الشخصية بوصفها وحدة وظيفية (من وحدات بروب).

وفي الحقيقة، لم تواجهني صعوبات جمة في إعداد الـ(C1)، ولا في تحضير الرسالة. وقد اعتمدت كلياً على نفسي، وهو ما أكسبني تقدير أساتذتي، الذين تنبهوا إلى أن قدرتي على الكتابة باللغة الفرنسية تفوق قدرتي على التحدث بها. ويبدو أن ممارستي لتدريس اللغة الفرنسية في السنوات اللاحقة وكذلك ممارستي

للترجمة الشفهية قد ساعداني كثيرا على ردم تلك الهوة بين الكتابي والشفهي.

ومن اللافت أن المسافة بين الطلبة والأساتذة في فرنسا تتقلص كثيرا كلما ارتفع مستوى الدراسة؛ فالأساتذة لا يمانعون أبدا أن تتم مناقشة أبحاث الطلبة أو فصول رسائلهم في الكافتريات أو المطاعم. لهذا لم أفاجأ حينما دعاني مشرفي سيمون جون للمشاركة في الرحلة والوليمة التي نظمها لزملائه الأساتذة لزيارة بلدة شارنت مسقط رأسه الواقعة بالقرب من مدينة أنقوليم، شمال شرق بوردو. وعند دخولنا البلدة توقفنا وصحبناه للمقبرة وشاركناه في الدعاء عند قبر والدته. ثم طفنا معه في شوارع أنقوليم، قبل أن نتوجه إلى قصر أبيه، الذي يحتوي على غرفة كبيرة محاطة بدواليب تحوي آلاف الكتب، التي أكد أنه قد قرأها كلها.

***

في إجازة نهاية سنة 1980، ذهبت إلى مدينة روان في شمال فرنسا، لزيارة الزملاء الدارسين هناك، منهم أبوبكر عبد الرشيد وحبيب سروري ونصيب عبد الرحمن وكمال ماطر، وعدد من معيدي كلية الزراعة بجامعة

عدن، والمشاركة كذلك في لقاء للطلبة اليمنيين هناك. ونزلت ضيفا لمدة يومين على الزميل محمد عاشور الكثيري، الذي كان حينها يدرس اللغة الفرنسية هناك.

وفي مطلع العام 1981، انتدبني قسم اللغة العربية لتقديم دروس تقوية في اللغة العربية لعدد من أبناء الجالية الجزائرية والجيبوتية في بوردو، ويبدو أن التلاميذ الجيبوتيين هم الذين استفادوا من دروسي، أما الجزائريون فقد اتهموني بأنني لا أتكلم العربية مطلقا، وشرعوا هم في تعليمي: بالزاف وبرشة...، إلى درجة أنني عندما عدت إلى عدن في يوليو 1981، كنت أتحدث العربية مثلهم تماما. وحينها فقط اقتنعت أن مسرحية (الدرس) لأوجين يونيسكو لم تكن عبثية!

ملحق الصور





أخي سالم



أبي في اليوم الأخير من حياته



مع الزميل محمد عاشور الكثير في روان ديسمبر 1980



REPUBLIQUE FRANCAISE

UNIVERSITE DE BORDEAUX III

DEPARTEMENT D'ETUDES FRANCAISES
POUR ETUDIANTS ETRANGERS

DIPLOME DE FRANCAIS COMMERCIAL

Le Président de l'Université de Bordeaux III, soussigné, certifie que

M. [illegible] Raymond

né(e) le 1958 à TIRAN

a été admis(e), le 13/05/1977

au Diplôme de Français Commercial de l'Université de Bordeaux III

TALENCE, le 13/05/ 1977

Le Président,
Professeur Spécial,
Directeur du Département



UNIVERSITE DE BORDEAUX III

D.E.U.G.

Le Secrétaire général de l'Université de Bordeaux III soussigné

certifie que Monsieur ABOUDIBE Mossaad

né le 13 Décembre 19 54

a obtenu le DIPLOME D'ETUDES UNIVERSITAIRES GENERALES

Mention LETTRES ET ARTS

Option LETTRES (option moderne)

à la session de Juin 1973

Bordeaux, le 11 Septembre 19 73

Pr. Le Secrétaire Général,

N. B. — La présente attestation n'est délivrée qu'en vue de remplacer, en cas de besoin et dans l'attente de leur retrait, les titres certifiés conformes par le Maire ou le Commissaire de Police.

UNIVERSITE DE BORDEAUX III

LICENCE ÈS LETTRES

Le Président de l'Université de Bordeaux III, soussigné, certifie que

M. [illegible] Nationalité [illegible]

né(e) à [illegible]

Appartenant à [illegible] de [illegible] le [illegible]

a obtenu le D.E.U.G. Mention [illegible]

Section : LETTRES [option modernes]

à la session de juin 1979

et les Certificats d'études supérieures exigés :

CL LETTRES MODERNES (Arabe-Latin) - juin 1980 - mention Assez Bien

C1 LINGUISTIQUE FRANÇAISE - juin 1980 - mention Passable

[illegible]

a été (sera) reçu du grade de LICENCE ÈS LETTRES à la session de juin 1980

Mention des LETTRES MODERNES

Bordeaux, le 1er juillet 19 80

P./Le Président,

Le Secrétaire Général,

Y. PERILLON

N.B. – La présente attestation n'est délivrée qu'en un seul exemplaire. En cas de besoin, en établir des copies et les faire certifier conformes par le Maire ou le Commissaire de Police.



UNIVERSITE DE BORDEAUX III

LETTRES-SCIENCES HUMAINES
ET SCIENCES DE LA TERRE

MAITRISE

Le Président de l'Université de Bordeaux III, soussigné, certifie que

Mr ABDUSSAMAD Mohamed

né(e) le [illegible]

(Yémen du Sud) le 10 Décembre 19 54

pourra (ou) être :

D.E.U.G. de LETTRES MODERNES — en Juin 1979 — admis

C.U. de LETTRES MODERNES (option Latin) — en Juin 1980 — Mention ASSEZ BIEN

C.U. de LINGUISTIQUE FRANCAISE — en Juin 1980 — Mention PASSABLE

C.U. de METHODES DE RECHERCHE EN LITTERATURE FRANCAISE, en Juin 1981 — Mention ASSEZ BIEN

Grand d'études et de recherches soutenu le 10 Juin 1981 — Mention TRES BIEN

est étudiant de la Maîtrise de LETTRES MODERNES

depuis le session de Juin 1981

Bordeaux, le 17 Juin 19 81

Pr. LE PRESIDENT,

L'Attaché Principal d'Administration

Universitaire

J. [illegible]

N.B. — La présente attestation n'est délivrée qu'en un seul exemplaire. En cas de besoin, en établir des copies et les faire certifier conformes par le Maire ou le Commissaire de Police.

N° 180

DOCTORAT

DE L'UNIVERSITÉ DE LA SORBONNE NOUVELLE
PARIS III

(arrêté du 5 juillet 1984)

Le Secrétaire Général de l'Université de la Sorbonne Nouvelle certifie que

Monsieur AMSHOOSH Masaood

Né à SEIYUN R.D.P. du Yémen le 19 Décembre 1954, a été jugé digne

du titre de DOCTEUR de l'UNIVERSITÉ DE LA SORBONNE NOUVELLE

Spécialité LITTERATURE GENERALE ET COMPAREE

avec une thèse intitulée : "Le traitement des procédés narratifs des Mille et Une Nuits

dans quelques recueils de contes français du XVIIIème siècle"

présentée en soutenance le 19 Décembre 1988 devant un jury composé de :

MM. M. GILLET, Professeur

M. PAGEAUX, Professeur

M. BENCHEIKH, Professeur

Mention : TRES HONORABLE

Cette attestation, pour être valable, ne doit être ni surchargée ni grattée. L'Université ne la délivre qu'une fois. Les Maires et les Commissaires de police français, les Agents diplomatiques et consulaires de France à l'étranger peuvent en délivrer des copies certifiées conformes.

Paris, le 20 décembre 1988

Le Secrétaire Général :

E. LAGARDE

INTERNATIONAL ASSOCIATION OF UNIVERSITIES
INTERNATIONAL UNIVERSITIES BUREAU
ASSOCIATION INTERNATIONALE DES UNIVERSITES
BUREAU INTERNATIONAL DES UNIVERSITES

TO WHOM IT MAY CONCERN

The following notes may be of assistance in assessing the standing of the qualifications obtained in France by Mr. Masaood Amshoosh.

The Université de la Sorbonne nouvelle (Paris III), founded in 1970 under the 1968 law reforming higher education, is one of the three universities replacing the former University of Paris, founded in the twelfth century. An institution of good international reputation, it has 17,101 students and an academic staff of 375.

In France, applicants for admission to postgraduate study for the award of a doctorate are required to hold a Maîtrise (four years' university study) or a foreign qualification recognized as its equivalent. The first year of postgraduate study is normally devoted to seminars and research work leading to the award of a postgraduate Diploma of Advanced Studies (Diplôme d'Etudes approfondies (DEA)).

Holders of DEA or a foreign equivalent may apply for admission for the preparation of the Doctorat which, according to new regulations (Decree of 5 July 1984), replaced both the Doctorat de 3e cycle and the Doctorat d'Etat. The course of study for the award of the Doctorat is of two to four years' duration. It may include attendance to seminars. The Doctorat is conferred following the presentation and successful defence of a thesis or a series of research papers. Mr. Masaood Amshoosh obtained his doctorate in general and comparative literature.

In view of the length of study, the degree of specialization and the need to prepare and defend a thesis, the new French Doctorate may be compared to the Ph.D. as awarded by a number of universities in the United Kingdom and North America. It was in fact created with a view to be compared to the Ph.D. and the British Council, in its International Guide to Qualifications in Education (2nd ed., 1987), describes it as "generally compared to the British Ph.D."

As for the United States, in its recent study on France, the American Association of Collegiate Registrars and Admissions Officers (AACRAO) recommends that the new French Doctorate should be "considered comparable to a US earned doctorate".

It is to be noted that Mr Masaood Amshoosh obtained his doctorate with the mark "très honorable", which indicates a good level of scholarship.

(Mme) Claudine Langlois
Head, Information and
Documentation Service

4 January 1989
Ref. 89/67

1, rue Miollis, 75732 Paris Cedex 15 France. Tel. : (33-1) 45.68.05.45 - Telefax : 47.34.76.05 - Telex : 250615 UIB F

المؤلف في سطور

أ.د. مسعود سعيد عمشوش

مكان وتاريخ الميلاد: سيئون حضرموت 1955/12/19

أستاذ الأدب العام والمقارن. كلية الآداب - جامعة عدن

مدير مركز عبد الله فاضل للترجمة والدراسات الإنجليزية - جامعة عدن

رئيس فريق الترجمة، جامعة عدن منذ يناير 1997.

وشغل المناصب الآتية:

النائب الأكاديمي - كلية الآداب جامعة عدن 2007-2013

رئيس قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة عدن، من أكتوبر 2000 حتى فبراير 2007.

رئيس قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب عدن، من 1995 إلى سبتمبر 2000.

رئيس قسم اللغة الفرنسية، كلية التربية عدن، من 1991 إلى 1995.

- مدير معهد اللغات الأجنبية جامعة عدن من1981 إلى 1984.

- مدير تحرير مجلة (التواصل) جامعة عدن 2004-2014

-عضو تحرير (مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية) جامعة عدن 1996-2004

-رئيس تحرير مجلة (فنار عدن الثقافية) منذ سنة 2020

الشهادات العلمية:

1- ليسانس آداب حديثة جامعة بوردو فرنسا 1979

2- متريز آداب حديثة (عربي فرنسي) جامعة بوردو فرنسا 1981

3- دكتوراه في الأدب العام والمقارن، جامعة السوربون 1988

الشهادات التقديرية:

شهادة المرتبة الأولى في امتحانات الثانوية العامة، 1974.

شهادة التفوق العلمي، 1989.

الكتب المنشورة:

1- عدن في كتابات الرحالة الفرنسيين، دار جامعة عدن للطباعة والنشر 2002.

2- حضرموت في كتابات فريا ستارك، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2004.

3- الحضارم في الأرخبيل الهندي، دار جامعة عدن للطباعة والنشر 2007، (تحصل على جائزة جامعة عدن لأفضل كتاب في العلوم الإنسانية عام 2008).

4- صورة اليمن في كتابات الغربيين: دراسات في تمثيل الآخر، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2010.

5- المستكشف هاري سانت جون فيلبي ورحلته إلى حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2012. ودار عناوين القاهرة

6- تعز في كتاب إيفا هوك: شاهدت اليمن من دون حجاب، طيبة بين الشرق والغرب، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2012.

7- الرواية في حضرموت في تسعين عاما، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2018.

8- حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي، ترجمة كتاب فان دن بيرغ، عدن 2019 ودار عناوين القاهرة

9- الترجمة في عدن، مركز مهارات عدن 2019

10- دراسات في الأدب في حضرموت قبل القرن العشرين، مركز مهارات عدن 2020

11- حضرموت في كتابات الغربيين، مركز مهارات عدن 2020

12- لهجة حضرموت في كتابات كارلو دي لاندبرج، مركز مهارات عدن 2020

13- سيئون في كتاب إدام القوت لعبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، مركز مهارات عدن 2020

14- اليمن في كتابات فريا ستارك، عدن 2015، تحصل على جائزة مؤسسة السعيد كتاب في العلوم لأفضل كتاب في العلوم الإنسانية سنة 2014. دار عناوين القاهرة

15-النقد الثقافي المقارن، دراسات ومحاضرات، مركز مهارات عدن 2021

16- الشعر الشعبي النسوي في حضرموت، مركز مهارات عدن 2022

17- أيامي في سيئون وبورد و، مركز مهارات عدن 2021

18- قراءات في صحافتنا قبل الاستقلال، مركز مهارات عدن 2020

19- أشكال كتابة الذات في حضرموت، مركز مهارات عدن 2020

20- أدب الرحلة في حضرموت، مركز مهارات عدن 2021

21- حضرموت في كتابات روبرت سرجانت، 2023

22- الحزايا الحضرمية، مركز مهارات عدن 2023

23- أبين في كتابات الغربيين، مع علي عزان وحسن الموصل، مركز مهارات عدن 2021